20 me. année No 972

Le Caire 18-2-1952

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٧٢ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ١٨ فبراير سنة ١٩٥٢ — السنة العشرون

طريق وحيد

للأستاذ سيد قطب

يوماً بعد يوم يتبين أن هنالك طريقاً معيناً للشعوب الإسلامية كلها فى هذه الأرض، يمكن أن يؤدى بها إلى العزة القومية، وإلى العدالة الاجتماعية، وإلى التخلص من عقابيل الاستعمار والطغيان والفساد .. طريقاً وحيداً لا ثانى له، ولا شك فيه، ولا مناص منه .. طريق الإسلام، وطريق التكتل على أساسه .

إن أحداث العالم، وملابسات الظروف، وموقف الشعوب الإسلامية .. كلها تشير إلى هذا الطريق الوحيد، الذى لا تمليه عاطفة دينية، ولا تحتمه نزعة وجدانية . إنما تمليه الحقائق والوقائع، ويمليه الموقف الدولى، ويمليه حب البقاء، وتلتقى عليه العاطفة والمصلحة، ويتصل فيه الماضى بالحاضر، وتشير إليه خطوات الزمن، ومقتضيات الحياة .

لقد أكلنا الاستعمار الغربى فرادى، ومزقنا قطعاً ومزقاً يسهل ازدرادها، وأرث بيننا الأحقاد والمنافسات لحسابه لا لحسابنا، وجمل له فى كل بلد إسلامى طابوراً خامساً، ممن ترتبط مصالحهم بمصالحه، وممن يرون أنفسهم أقرب إلى هذا الاستعمار منهم إلى شعوبهم وأوطانهم؛ وأقام أوضاعاً معينة فى كل بلد إسلامى تسمح له بالتدخل، وتملى له فى البقاء، وتضمن له أنصاراً وأذناباً فى كل مكان .

فإلى أين نتجه لنكافح الاستعمار وأذنابه وأوضاعه ؟ إن أناساً من المخدوعين والمغرضين، يدعوننا أن نتجه إلى الكتلة الشرقية . الكتلة الشرقية التى تمحو الإسلام والمسلمين محواً منظماً ثابتاً فى أرضها، منذ أن استقرت فيها الشيوعية، والتى تتخذ مع المسلمين فى أرضها من وسائل الإفناء المنظم ما لم يعرفه التتار ولا الصليبيون فى أشد عصورهم قسوة وفظاعة .

لقد كان عدد السكان المسلمين فى الأرض الروسية اثنين وأربعين مليوناً عند ابتداء الحركة الشيوعية، فتناقص عددهم تحت مطارق الإفناء المنظم، والقتل والتجويع والنفى إلى سيبريا حتى وصلوا فى خلال ثلاثين عاماً فقط إلى ستة وعشرين مليوناً .. ستة عشر مليوناً من المسلمين فى الأرض الروسية وحدها قد أبيدوا .. أما فى الصين الشيوعية فالمأساة تتكرر الآن فى تركستان الشرقية، بنفس الوسائل ونفس الشناعة .. وفى يوغوسلافيا تتم حركة التطهير من العنصر الإسلامى .. وفى ألبانيا كذلك .. كل أرض مستها الشيوعية قد نزلت فيها النقمة على رؤوس المسلمين بشكل وحشى يروى الفارون منه أخباره وتفصيلاته، كما تروى أساطير الهمجية الأولى .

ولقد ذاق المسلمون من قبل على يد القيصرية الروسية

ما ذاقوا باسم العصبية الدينيــة . . فأما اليوم فهم يذوقون الويل نفسه ، بل أشد وأشنع ولكن باسم العصبية الشيوعية . . وهي في حقيقتهما روح واحدة : الروح الصليبية التي لا تنساها أوربا أبداً ، مهما تبدلت فيها النظم . . الروح الصليبية التي نطق باسمها الماريشال « ألنبي » وهو يدخل بيت المقدس في الحرب العظمى الماضية فيقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية » والتي ينطق باسمها الجنرال كاترو في دمشق سنة ١٩٤١ فيقول : « نحن أحفاد الصليبيين ، فمن لم يعجبه حكمنا فليرحل ! » وينطق باسمها زميل له في الجزائر سنة ١٩٤٥ بنفس الألفاظ والمعاني . . إنها هي هي في أوربا كما هي في أمريكا ، وكما هي في البلاد الشيوعية . . كلها تنضح من إناء واحد : إناء الحقد على الإسلام ، والتعصب الصليبي القديم . يضاف إليه تعصب الشيوعية ضد الأديان جميعاً ، وضد الإسلام على وجه الخصوص .

ويتشدق أقوام هنا بالحرية الدينية في الكتلة الغربيــة ، كما يموه أقوام بالحرية الدينية في الكتلة الشرقية . . وكلهم خادع أو مخدوع ، والحوادث والوقائع تنطق بأن المسلمين غير مرحومين عند الغرب أو عند الشرق . . فكلاهما عدو غير راحم ! إن الغرب الذي يمتص دماء المسلمين بالاستعمار القذر اللئيم . وإن الشرق لهو الذي يبيدهم إبادة منظمة تتولاها الدولة تحت شتى المعاذير !

ويعرض علينا المخدوعون أو الخادعون أحياناً نصوص الدستور السوفيتي ، ومادة فيه تنص على حرية الاعتقاد . . نعم لك حرية الاعتقاد في الاتحاد السوفيتي ، على ألا تسلم لك بطاقة للتموين — وليس هنالك وسيلة غير هذه البطاقة لتحصل على الطعام والشراب والكساء — ولك أن تعبد الله إذن كما تحب ، ولكن ليس لك أن تأكل من مخازن الدولة ! وأنت وما تشاء : الموت جوعاً مع الله ! أو الحياة الحيوانية مع ستالين !

إنه ليس الطريق أن ننضم إلى كتلة الغرب أو كتلة الشرق كلتاهما لنا عدو ، وكلتاهما كارثة على البشرية ، وعلى الروح الإنسانية . . لقد تكون الشيوعية في أرضها نعمة على أهلها ، ولقد تكون الديمقراطية في أرضها نعمة على أهلها . . ولكن هذه وتلك بلاء ونقمة على الشعوب الإسلامية . الاستعمار بلاء واقع يجب كفاحه وإجلاؤه . والشيوعية بلاء واقع كذلك على ملايين المسلمين الواقعين في براثنه . والوطن الإسلامي كله وحدة ، ومن اعتدى على مسلم واحد ، فقد اعتدى على المسلمين أجمعين .

إنه ليس الطريق أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة هنا أو هناك ؛ فلقد حارب الاستعمار الغربي كل مقوم حقيقي من مقومات الإسلام ، وإن تظاهر بالإبقاء على المظاهر الموهمة التي لا تقاومه ولا تكافحه . . وحينما اجتمع مؤتمر جميع المبشرين في جبل الزيتونة بفلسطين عام ١٩٠٩ وقف مقرر المؤتمر ليقول : إن جهود التبشير الغربية في خلال مائة عام قد فشلت فشلا ذريعاً في العالم الإسلامي لأنه لم ينتقل من الإسلام إلى المسيحية إلا واحد من اثنين : إما قاصر خضع بوسائل الإغراء بالإكراه ، وإما معدم تقطعت به أسباب الرزق فجاءنا مكرهاً ليعيش . وهنا وقف القس زويمر المعروف المصريين ليقول : كلا ! إن هذا الكلام يدل على أن المبشرين لا يعرفون حقيقة مهمتهم في العالم الإسلامي . إنه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الإسلام إلى المسيحية . كلا ! إنما كل مهمتنا أن نخرجهم من الإسلام فحسب ، وأن نجعلهم ذوابن لتعاليمنا ونفوذنا وأفكارنا . ولقد نجحنا في هذا نجاحاً كاملاً ؛ فكل من تخرج في مدارسنا ، لا مدارس الإرساليات فحسب ، ولكن المدارس الحكومية والأهلية التي تتبع المناهج التي وضعناها بأيدينا وأيدي من ربيناهم من رجال التعليم . . كل من تخرج في هذه المدارس خرج من الإسلام بالفعل وإن لم يخرج بالاسم . وأصبح عوناً لنا في سياستنا دون أن يشعر ، أو أصبح مأموناً علينا ولا خطر علينا منه ! . . لقد نجحنا نجاحاً منقطع النظـــير . .

هذا موقف الكتلة الغربيــة . فأما الكتلة الشرقية ، فقد اختارت الإفنـاء المنظم ، والإبادة الوحشية بمعرفة الدولة ، وما تزال ماضية في طريقها لمحو الإسلام والمسلمين !

إن طريقنا واضح . طريقنا الوحيد أن نمضي في تكتل إسلامي ، هو وحده الذي يضمن لنا البقاء ، ويضمن لنا الكرامة ، ويضمن لنا الخلاص من الاستعمار وأذنابه وأوضاره ، كما يضمن لنا أن نقف سداً في وجه التيار الشيوعي المهلك المبيد .

والتكتل الإسلامي لا يعني التعصب في أي معنى من معانيه .. إن الإسلام هو الضمانة الوحيدة في هذا العالم اليوم لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له في العقيدة . فهو وحده الذي يعترف بحرية العقيدة ويرعاها ، في عالم الواقع لا في عالم النصوص . وهو وحده الذي يمكنه أن يضمن السلام للبشرية كلها في ظلاله ، سواء من يعتنقونه ومن لا يعتنقونه .. إنه لا يستعمر استعمار الغرب الآثم الفاجر ، ولا يبيد مخالفيه إبادة الشيوعية الكافرة الجاحدة . . إنه النظام العالمي الوحيد ، الذي تستطيع جميع الأجناس ، وجميع العقائد ، أن تعيش في ظله في أمن وسلام .

وطريقنا إذن أن نرفض كل ارتباط يشدنا إلى عجلة الاستعمار — تحت أي اسم وأي عنوان — وأن نرفض في الوقت ذاته كل دعاية تدفعنا إلى فلك ذلك الغول الشرقي ، الذي يبيد العنصر الإسلامي في أرضه بقسوة وشناعة ، لا يقرها المجرم في أحلك عصور التاريخ .

إنه طريق وحيد . طريق الكرامة . وطريق المصلحة . وطريق الدنيا . وطريق الآخرة . . إنه الطريق إلى الله في السماء وإلى الخير في الأرض . وإلى النصر والعزة والاستعلاء .. إنه هو الطريق !

سيد قطب

١٤ ـ ٣٨

بنات العرب في إسرائيل

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه قصة واقعية قرأتها ملخصة في سطور في كتاب (من أثر النكبة) للأستاذ نمر الخطيب . بطلها رجل من فلسطين يحسن الانكليزية كان له صديق من أعضاء اللجنة الدولية ، سأله أن يأخذه إلى تل أبيب ليجدد ببلاده عهداً ، فأجابه إلى ما سأل وألبسه لباس أعضاء اللجنة حتى غدا كأنه واحد منها

ووصلوا تل أبيب ، فأنزلهم اليهود في فندق عظيم ، وأولوهم أجل العناية وأكبر الرعاية ، حتى لقد أخبروهم أن إدارة الفندق ستبعث إلى غرفة كل واحد منهم فتاة بارعة الجمال ، لتكون رفيقته تلك الليلة

قال :

ولما أويت إلى غرفتي ، تمثلت لي الفتاة التي وعدت بها ، فملأت صورتها نفسي وهاجت فيها أدنأ غرائزها ، وأحط شهواتها ، ونسيت أني في بلد العدو ، وأني على التوقي والحذر ، وارتقبت ليلة (كما يقولون) حمراء ، تلتهب فيها الأعصاب بنار الشهوة الجائعة ، وخيل إلي منطق الغريزة أني إن نلت امرأة من يهود فقد غزوت يهود في ديارها . وثقلت علي الساعات الباقية دون الليل ، وطالت دقائقها ، وجثم وقت الانتظار على صدري فتقارب نفسي ، وازداد خفقان قلبي ، وأحسست بركبتي تصطكان ، وكنت أقعد فلا أطيق القعود ، فأقوم فلا أرتاح إلى القيام . وحاولت القراءة فكانت الكلمات تتراقص أمام بصري ، ثم تستحيل إلى صور صبايا عاريات ، وتضيع المعاني فلا أدرك إلا المعنى الواحد الذي هو في ذهني

وكذلك تصرمت ساعات ، ما أظن أنه مر علي في عمري أثقل منها . وما أظن لذائذ الوصال لو جمع لي ما يلقاه الناس كلهم منها ، تعدل آلام هذه الساعات

... وجاء النادل (الكارسون) يقدم إلي فتاة ، جرفتها ببصري في لمحة واحدة ، وجردتها بخيالي من ثيابها في ثانية ، فرأيتها عارية أمامي ، وجمحت بي الغريزة حتى لا أقدر على الصبر عن عناقها دقيقة ، وعن ضمها إلي ، وعن أن أشد يدي عليها ، ثم آكلها عضا

وكانت شقراء لها شعر ما علمت قبل اليوم كيف يكون الشعر كأسلاك الذهب ، يتموج ويسترسل على كتفين مستديرتين كأنهما ... ولكن مالي ولهذا الولع بالتشبيهات ، وبماذا أشبه كتفي فتاة عبلة في السابعة عشرة ؟

وكان يبدو من جيب ثوبها الفاضح خط ما بين نهديها ، كأنه خيط يسحب القلب من صدر رائيه ، وأنف أشم كأنف صبي من ولد الإغريق الأولين ، وفم كأنه زر ورد أحمر

وكان ثوبها ينحسر عن ساقين ممتلئتين مستديرتين ، يقطر الصبا منهما والجمال ، ولم تكن فتاة ولكنها كانت فتنة في ثوب امرأة . وكان الحب الذي غنى له الشعراء ، وسبحوا بحمده ، مصورا فتاة . كذلك كنت لما ثبت النظر أخيرا على عينيها

لقد كانت لها عينان ، لا يستطيع السمو إلى وصفهما البيان ؛ عينان فيهما شيء لا أدري ما هو ، ولكني أحلف أني ما

مكثت بصرى منهما حتى أحسست بأن أعصابى المشدودة قد استرخت، وأن دمى الفائر بالشهوة قد برد، وأن قد طارت من رأسى كل فكرة جنسية، وامتلأ قلبى عطفا وحنانا، كأن أمامى قطة صغيرة وديعة حلوة الوجه، ناعمة الشعر. هذا ما شعرت به وأنا أعتذر من غرابة هذا الشعور، وتوهمتها من طهر عينيها زنبقة من زنابق الجبل، بيضاء كالثلج، نقية كالندى، لم يمسها إلا نسيم الأصيل، ولم تقبلها إلا أشعة الشمس، ولم تبصر غريبها إلا عين الشتاء.

وعجبت أنا من نفسي، مما عراني، قبل أن يعجب القارئ مما أروى

عجبت كيف تكون لى هذه العاطفة على بغى!

أو ليست بغيا هذه التى يقدم جسدها اليهود قرى لضيوفهم كما يقدمون لحوم الخراف وشحوم الخنازير؟ وعدت أنعم النظر إليها، فأرى صبية فى ثياب الغوانى، ولكن فى عينيها حياء العذارى، وأرى فيها ملامح رقة وتهذيب كأنها ملامح طالبة من طالبات المدرسة، لا فتاة من فتيات الليل، فرحت أحاول أن أوحى إلى نفسى أنه دل البغايا حين يسرقن نظرات الأبكار

ووقفت ووقفت وساد الصمت والسكون، فلا حركة ولا كلام

وعجبت هى منى أكثر من عجبى من نفسى، كأنها ما تعودت من قبل إلا لقاء وحوش فى ثياب بشر، لا يرون فيها إلا ما يراه الذئب فى جسم النعجة، لا يعنيه منه لونه فى نظره، ولا ريحه فى أنفه، ولا لينه فى كفه، ولكن طعمه تحت أنيابه، وإن كان جسد النعجة ينال مرة فتموت وتستريح، وهذه (نعجة) يتعاورها الذئاب كل يوم، فهى تموت كل يوم ميتة جديدة

ووقفت متململة تحاول الابتسام فلا يلوح على شفتيها إلا بقايا ابتسامة ماتت من زمن طويل. وثقل الموقف ولم يفتح على بكلمة، فأرادت الخلاص فأشارت إشارة المحكوم عليه إلى الجلاد ليعجل عليه بالإنقاذ ويخلصه من الانتظار الذى هو شر من الإنفاذ

أشارت بيد إلى الفراش. كأنها تقول: تريد؟ وبالأخرى إلى ثيابها كأنها تقول: أنزع؟ وعاودت أعصابى هياجها، ولكنى نظرت إلى عينيها فرأيتهما تقولان لقلبى شيئا غير ما تقول اليدان، فأجبت برأسى أن لا!

ودعوتها فتقدمت إلى جنبى، وهمت بأن تلقى بذراعيها على كتفى، وبصرها تائه فى الأفق البعيد، كأنها تتحرك وهى منومة، فمنعتها برفق، وكلمتها بالإنكليزية، فأومأت بأنها لا تفهمها، فكلمتها الكلمات القليلة التى أحفظها من العبرية، فعلت وجهها سحابة سوداء من الألم، وغامت عيناها لحظة، ثم أومأت بأنها لا تفهمها، فكلمتها بالفرنسية فلم تفهم

ففكرت هل أخاطر وأكلمها بالعربية، وكنت أعلم ما فى ذلك من الأذى لى والضر بى، ولكنى أقدمت وقلت لها: هل أنت عربية؟

فانتفضت انتفاضة لو كانت بصخرة لصبت فيها الروح، ولانبجست فيها الحياة. وأضاء ذلك الوجه الجميل، الذى كان عليه نقابان: نقاب من التبذل الظاهر، ونقاب من الألم الخفى، وأشرق بنور سماوى وحدقت فى بعينيها العجيبتين، وفيهما لمعة الفرح، وفيهما حلقة الذعر، وقالت:

— هل أنت عربى؟

فترددت ما بين خوف منها، وبين عطف عليها، خفت أن تكون يهودية فتشى بى، وأشفقت أن تكون عربية تحتاج إلى، ثم غلبت ثقتى بها، فقلت لها:

— نعم

— قالت: وأنا عربية، من أسرة (كذا) من بلدة (كذا) ومعى خمس وثمانون من بنات العرب . . . فأحسست كأن خنجرا مسموما قد أوقد عليه وغرز فى قلبى، وكأن الأرض تدور بى، ولكنى ثبت ولم أحب أن أفجع السكينة بهذا الحلم البهى الذى رأيت ظلاله على وجهها، لقد حسبت من خلال الفرحة الطارئة أنها من يافا العربية، وأنها قد عادت إلى طفولتها المدللة، وعادت لها طهارة تلك الطفولة، وأنها لا تزال العذراء البكر تعيش بين أهلها وذويها فى حمى الأبطال العرب الذين كانوا يحرسون أرض الوطن، وعرض بنات الوطن، وحمى الجيوش العربية التى كانت أعلامها تلوح على الآفاق الأربعة البعيدة، من وادى النيل، وجنبات الأردن، وخمائل الغوطة، وسهول العراق، وبطاح نجد، فتبعث فى نفوس عذارى فلسطين الدعة والأمن، وفى قلوب شبابه الزهو والكبر، وتمنعها أن

تطيف بها رهبة من يهود

ولكن هذه الإشراقة ما لبثت أن بدت حتى اختفت . إن الصبح الذى حسبته قد انبلج بعد ما طال منهـا ارتقابه لا يزال بعيدا ، والشاطىء الذى ظنته دنا بعد ما اشتد إليه حنينها لايزال ضائعا فى الضباب، ولا يزال مكتوبا عليها أن تقاسى الذل آماداً أخرى ـ لا يزال فى الكأس المريرة بقايا عليها أن تتجرعها

خبت إشراقة النور التى وقدت على جبينها ، وانطفأ البريق الذى لمع فى عينيها ، وهيض الجناح فهبطت من سماء الأحلام إلى أرض الحقيقة التى قيدتها بها قيود اليهود . وصحت من سكرة الفرح فإذا هى حيث كانت ، لا الحرية عادت ولا الأهل ، ولا الليالى الماضيات تعود

وفاضت النفس رحمة بها وحنانا عليها ، فطوقتها بيدى فانكمشت والتصقت بى ، كما تفعل القطة الوديعة، وأخفت وجهها فى صدرى ، وهى تنشج نشيجا خافتا ، عنيت معه لو أستطيع أن أشترى سعادتها التى فقدتها بحياتى لأردها عليها ، وأحسست أنى أحبها منذ الأزل ، وأنى لم أعش يوما منفردا عنها ، ولا أعيش يوما بعد فراقها ، وأن قد امتزج منا الجسمان ، واتحد الروحان ، واختصر الزمان حتى كان هذه اللحظة وحدها ، كما يختصر شعاع الشمس فى عدسة الزجاج فى نقطة واحدة ، وفى هذه النقطة الأشعة كلها ، فلا ماض مضى ولا آت يجيء …

وهتفت بى ووجهها خلال ثيابى ، وأنا أحس خفق قلبها فوق صدرى ، كأنه حديث من قلبها إلى قلبي :

— لن أعود إلى حياة الرذيلة . لن أعود . خذنى معك ، إلى الشام ، إلى الأردن ، إلى الصحراء ، إلى أى بلد عربى لا حكم فيه لليهود . خذنى أكن خادما لك ، أكن أمة ، أو فأعنى على الموت ، فإنى لا أجرؤ وحدى عليه ، حتى لا أعين بجسدى الملوث الأرض التى احتوت رفات الجدود

° ° °

لقد رأت فى السكينة شماعة تخلفت من نهارها ، وزهرة بقيت من روضها ، فحسبت أن النهار الذى ولى وغربت شمسه يعود ، وأن الروض الذى جف وصوح نبته يرجع . وهيهات هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وأضاعوا عزة العرب ، وشهامة العرب

لقد هتفت أسيرة عربية فى قديم الدهر ، باسم ملك العرب المعتصم فنحى الكأس وقد دعا بها ليشربها ، ووثب من فوره يجيبها

(أجابها) معلنا بالسيف منصلتا ولو (أجاب) بغير السيف لم يجب

حتى اقتحم من أجلها جيش هرقل صاحب البرين والبحرين ونازل الروم من كانوا يوما سادة الأرض ، وعاد بالمرأة وعاد بالنصر الذى طبق خبره الأرض ، وطاول مجده السماء

فهل من ينقذ اليوم آلاف النساء ، نساء العرب ، من سبى أذل الأمم : اليهود ؟ هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وعزة العرب !

° ° °

وعادت تقول وهى مخفية وجهها خجلا :

إن ترنى اليوم ماشية فى طريق الفجور ، فلقد كنت يوما بعيدة عنه ، جاهلة به ، وكان لى أبوان شريفان وكانت لى أخت ، وكانت . . .

وشهقت شهقة ألمة

… فهل يعلم أحد أين هى أختى ؟

لقد أراد لى والدى الحياة الماجدة الكريمة — فربيانى على الدين والخلق — وعلمانى حتى نلت الشهادة المتوسطة ، وتهيأت للبكالوريا ، وأطلعنى أبى على روائع الأدب ، وكنوز المعرفة ، وكان يرجو لى مستقبلا فكان مستقبلى .. كان … كان …

وشرقت بدمعها

لقد قتلوا أمى يوم الواقعة ، أفتدرى كيف قتلوها ؟ إنهم وضعوا البندقية فى … كيف أقول ؟ فى مكان العفاف منها ، فوقعت أمامى تتخبط بدمها ، أما أبى فهرب بى وبأختى وانطلق يعدو حتى لحقوه ، فجعلوا يضربونه بأعقاب البنادق وبأيديهم وبأرجلهم حتى سقط . واستاقونا …

ورحت أتلفت وأنا أكاد أجن من القهر ، أنادى: أبى ! أبى! أحسب أن أبى يسمع ندائى بعد الذى نزل به أو يقدر على حراك . ولكن أبى قد سمع وشدت روح الأبوة ، وسلائق العروبة من عزمه ، فنهض يسعى ليفتدينى وكلما وفى ذكر أن ابنته

التي رباها بدمه وغذاها من روحه وربا لها المستقبل البارع ستغدو أمة لليهود ، فتعاوده القوة حتى استنفد آخر قطرة من قواه ، فسقط مرة ثانية قبل أن يدركنا

تمر على الإنسان المصائب الثقال فينساها . يمرض حتى يتمنى الموت ثم يدركه الشفاء فينسى أيام المرض . ويموت أليفه فيألم حتى يعاف العيش ثم ينسى موت الحبيب ، ولكن مصيبة الفتاة بعفافها لا تنسى حتى ترد ذكراها معها الموت

لقد كانت هذه الساعة بداية آلامي التي سأحملها معي إلى القبر . فقدت الأب والأم ، ثم فقدت العفاف وغدوت مثل البغايا ، فأين عينا أبي ترياني ؟ أين أبي ؟ هل هو حي معذب مثلي لم قدمات واستراح ؟

إني لأرجو أن يكون قد مات . أفرأيت ابنة تتمنى الموت لأبيها ؟ نعم . حتى لا يرى ما حل بينته فيجد ما هو أشد عليه من الموت

ولما غدوت وحيدة في أيديهم ، وعرفت أنه لا معين لي بعد أن فقدت أبي ، تنبهت في القوى الكامنة ، وأمدني اليأس بالعزم ، وشعرت بأني كبرت فجأة حتى أصبحت بجنب أختي الصغيرة أما لها بعد أمها ، وأبا بعد أبيها ، وأن علي أن أحميها . وقلت لنفسي : إذا كانت الدجاجة تدفع عن فراخها هجمة النسر ، والقطة إن ضويقت واستيأست تقاتل الذئب ؟ فلم أعجز عن حماية هذه الطفلة؟ وقد كانت طفلة حقا، كانت في الثالثة عشرة تبكي بكاء مارأيت قط مثله ، وترتجف كل عضلة من جسمها كما ترتجف كل ورقة في الشجرة هبت عليها رياح الخريف

وتنمرت واستبسلت دونها ولكنهم غلبوني وأخذوها مني ثم وضعوني في سيارة جيب مع ثلاثة من جنود يهود

وطفقت أدافع بيدي ورجلي ، وأعض بأسناني حتى عجز عني أنا البنت الضعيفة ثلاثة الرجال . فلو أن كل عربي من أهل فلسطين وكل امرأة وكل ولد ، كان قاتل بسلاحه وقاتل بعصاه إن لم يجد السلاح ، وبحجارة أرض الوطن وبيديه وأسنانه لما استطاع اليهود ...

ولما ذكرت اليهود ارتجفت من الخوف . وتلفتت حولها تخشى أن تسرق همسها آذان خفية في الجدار فتنقله إلى جلاديها

قالت :

وصب في الخوف على أختي قوة لم أكن أتصور أنها تكون لأحد ، فاغتنمت لحظة غفلة ممن معي ووثبت من السيارة فوقعت على ركبتي

وكشفت عن ركبتيها وقالت : أنظر ، ثم عاودها حياء العذراء التي كانتها يوما والتي تقص قصتها فأسرعت فسترتهما

قالت :

وجعلت أعدو حافية وقد سقط الحذاء من رجلي على التراب والشوك حتى لحقوا بي وأعادوني

ورجعت أدافع ، فأحسست غرز إبرة في يدي ، ثم لم أعد أشعر بشيء

وسكتت لحظة وكادت من الحياء يدخل بعضها في بعض . وصار وجهها بلون الجمرة ثم تكلمت بصوت خافت كأنه آهات مكتومة لم أتبينها حتى دنوت منها ولفحت أنفاسها الحرى وجهي

قالت :

ولما صحوت وجدتني ملقاة على أرض السيارة ، مكشوفة ... وعلى فخذي آثار دم ! !

وعادت تنشج ذلك النشيج الذي يفتت القلب

لقد أراقت دم عفافها لأن رجال قومها لم يريقوا دماء أجسادهم في سبيل الأرض وفي سبيل العرض . لقد خدروها بهذه الإبرة كما خدروا زعماء العرب بالوعود وبالخدع وبحطام من الدنيا قليل

* * *

قالت :

وصرنا ننتقل من يد إلى يد أنا وبنات قومي العرب ، كالإماء في سوق الرقيق لم تهدر كرامتنا وحدها ولم تضع أعراضنا فقط ، بل لقد فقدنا صفات الإنسانية . غدونا (أشياء) تباع وتشرى ، ويساوم عليها ، صارت لحومنا قرى لضيوف اليهود !

إن البائس ليلاقي في مغارات اللصوص ، وفي سراديب السحرة قلبا طيبا يحنو عليه ، ويخفف بؤسه . ولكننا لم نلق هنا رحمة من أحد

لقد قرأت مرة في قصة كان دفعها إلى أبي مترجمة عن الكاتبة

الأمريكية أ. بيشر ستو ، أنه كان من أحلى أماني الرقيق أن يباع معه قريبه وألا يفصل الرق الأم من بنتها والولد من أخته ، فكنت أعجب من تلك الصور وهوان الإنسانية فيها ، فأي حقيقة مروعة مرعبة رأيت ؟ بنات العرب صرن رقيقا لليهود لا للعمل ولا للخدمة بل للخزي والفجور ... وما أندى مثل ذلك الرقيق : كل ما أعناه أن يجمع الرق الأبيض بيني وبين أختي !

هذا ما تتمناه بنت الأسرة العربية الشريفة بعد نكبة فلسطين. أما حنان الأب، أما حب الأم، أما عزة العفاف وكرامة العروبة ، وتلك الأيام التي كانت ترتع فيها في روض الطفولة فلم يبق من ذلك كله إلا صور باهتة في أعماق الذاكرة ، لا تجرؤ هي أن تحدق فيها.. كلا إنها لا تستطيع أن تسمو إلى بعث هذه الذكريات .. إن الرأس الذي أحنته وصمة العار لا يقدر أن يرتفع بنظاره إلى السماء

ولكن الوصمة يا أختي — يا أختي على ما أنت عليه ، الوصمة ليست على جبينك أنت ، إنها على جبين كل عربي يرضى لك هذا الذي أنت عليه

وكانت ليلة ليلاء ، ما عرفت فيها إلا لذع الآلام

لقد كان من المستحيل أن نفكر بالنائية التي بعثوا بها من أجلها ، ذلك لأن الشهوة لا تنام على فراش حشي بأشواك الذعر، وغريزة الجنس لا تسكن قلبا ملأته بالآلام نكبات الوطن

لقد صيرتها جوامع الأحزان ، أختي . ولا يستطيع الشيطان أن يدخل بين أخوين جمعتهما في ظلمة الليل أوجاع القلب الجريح

وانتهت الليلة وجاء النادل في الصباح ليقدم الفطور قوت الصباح ، ويحمل الفتاة قوت الليل، فاضطرمت في رأسي نار النخوة لما أبصرته ، ولكنها كانت (يا للعار) نار القش لا تضطرم فلا تجد الحطب الجزل فتنطفيء

وودعتني بنظرة . . . بنظرة لا يمكن أن يعبر عن وصفها ومعناها لسان بشري

وجاءت السيارات تحملنا لنعود من حيث أتينا ، نعود ونترك بناتنا يفتك بأعراضهن اليهود؛ ومررنا بيافا ، ونظرت إلى هذه المنازل التي كانت بالأمس لنا فصارت لغيرنا ، خرجنا منها في ساعة واحدة انحطت علينا فيها النكبة كما تنحط الصاعقة ، الأثاث الذي نضدناه قعد عليه غيرنا، والطعام الذي طبخناه أكله غيرنا ، والفراش الذي مهدناه ، آه . هل أستطيع أن أنطق بالحقيقة المرعبة ؟

ولكنها حقيقة ، إن الفرش التي مهدناها ، هتك اليهود عليه عفاف بناتنا !

ويبقى على ظهر الأرض عربي لا يقنع وجهه حياء ، ولا يواري وجهه خجلا ، خجلا من أمجاد الأجداد، خجلا من سلائق العروبة ، خجلا من عزة الإسلام !

يارجال العرب إن لم تحموا أعراض نسائكم فلستم برجال

يا جنود العرب ، إن لم تدفعوا الأذى عن وطن العروبة وعن أعراض بناتها ، فاخلعوا عنكم ثياب الجنود يامن أضاعوا فلسطين ، عليكم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

واختفت يافا ، وغابت وراء الأفق وأنا لا أزال أرى تلك النظرة التي ودعتني بها . لن أنساها أبداً ، ولن أنسى أني تركتهم يأخذونها وأنا حي ، وأني كنت جبانا ، وكنت نذلا كالآخرين !

علي الطنطاوي

زكرى وفاة

الشيخ مصطفى عبد الرازق

للأستاذ محمود الشرقاوى

في ١٥ فبراير الحالى تم سنوات خمس على وفاة المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد أحببت، في هذه المناسبة، أن أبعث «للرسالة» بهذه الكلمة، لا عن مصطفى عبد الرازق الأستاذ في الجامعة، أو الوزير، أو السياسى، أو شيخ الأزهر. وإنما عن مصطفى عبد الرازق. فمصطفى عبد الرازق، بصفاته، وخصائصه، ومميزاته، هو الذى أريد أن أكتب فيه هذه الكلمة

° °

كانت أبرز صفات مصطفى عبد الرازق: رقة العاطفة، والتواضع، وحب الخير، والاعتداد بالنفس

تحدث بعض تلاميذه — وقد تولى منصبا جليلا في القضاء — فقال: كان الشيخ مصطفى يدرس لنا في الأزهر مادة «الإنشاء» فوجد واحدا من طلبته زرى الهندام، ولاحظ بعض إخوانه يكاد يعيره بذلك. وظن طلبة الشيخ أنه غير متنبه لما يجرى بين هذا الطالب وإخوانه. ولكنه في أثناء الدرس، تطرق إلى موضوع القيمة الذاتية للفرد، وأنها لا تخضع لقياس الثروة والجاه، وأن المال والثياب لا تجعل الرجل عظيما، وإنما قيمة الرجل وعظمته في فضائله وعلمه وآدابه

وكان ليقظة الشيخ، ولطف توجيهه لأبنائه، وعدم إشارته أى إشارة للطالب الفقير، أكبر الأثر في تقويم تلاميذه وإدراكهم لما يقصد، واستقامة نفوسهم بعد ذلك، وصدق مودتهم بعضهم لبعض

وقص تلميذ الشيخ فقال: وشكا واحد من طلبة الشيخ مصطفى إلى صديق له قلة ماله، وأنه يخشى أن تقطعه الحاجة عن طلب العلم، واستشاره، فقال له صاحبه، بعد تفكير، ليس لك إلا أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق. فقصد الطالب المحتاج، بعد تردد، بيت شيخه، وكان لا يزوره، فلما أقبل على الشيخ، وفى مجلسه جمع كبير من العظماء وأهل المكانة، قام الشيخ لاستقباله مرحبا، وقدمه لضيوفه مادحا له، ذاكرا نبوغه في الطلب وحسن استعداده وذكاءه، ثم أدرك الشيخ بعد قليل، من حياء تلميذه وتهيبه، أنه يعالج في نفسه شيئا، فاستأذن ضيوفه واختلى بتلميذه، فلما سمع منه قصته قال له: أمهلنى أسبوعا ولا تجزع، وعد إلى بعده

وبعد أسبوع عاد الطالب على شيخه فوجده قد وفق لتعيينه في وظيفة أعانته على مداومة الطلب. وأبلغه ذلك وكأنه يعتذر عن تقصيره

وكثيرون من أبناء الشيخ وخاصته يعرفون عشرات من مثل هذه الحادثة

° °

وعندما عاد الشيخ مصطفى عبد الرازق من فرنسا في سنة ١٩١٤ وكان شقيقه المرحوم حسن باشا وكيلا للديوان الخديوى اختير سكرتيرا لمجلس الأزهر الأعلى. وحدث في إحدى الجلسات أن اشترك في مناقشة المسائل المعروضة، وتأثر بعض أعضاء المجلس من مناقشته، أو من أسلوبها، فقال له المرحوم حسن باشا جلال، وكان عضوا بالمجلس: ياشيخ مصطفى، أنت سكرتير، ولست عضوا معنا. أنت تكتب ما نقول ولكنك لا تشترك في المناقشة. فسكت الشيخ قليلا، ثم قام، ولم يتكلم فأخذ ورقة، وأقفل درج مكتبه، وذهب إلى بيته ولم يعد للأزهر. فلما عرف شقيقه حسن باشا ما حدث، اتصل بحسن باشا جلال معاتبا، فقال له: إن مصطفى ابنى، وقد أردت توجيهه وإفادته! ومع ذلك سأجيء إليكم لأسترضيه، وأزيد في توجيهه وإفادته. وزار جلال باشا بيت عبد الرازق، ثم عاد الشيخ مصطفى سكرتيرا للمجلس

وقد قص على هذه القصة من كان يحضر مجلس الأزهر الأعلى في ذلك الوقت

• • •

وقص على الشيخ، يرحمه الله، هذه الواقعة، قال

كان أبي رحمه الله ، وأنا أطلب العلم في فرنسا ، يرسل إلي في أول كل شهر نفقاتي وكانت تصلني في موعد لا يتخلف . وفي شهر من الشهور ترقبتها في موعدها ولم ترد ، وبقيت أنتظر يوما بعد يوم ، حتى قل ما بيدي من المال قلة شديدة . وكنت شديد الحرص ألا يعلم إنسان ما أنا فيه . فلما خشيت أن يعلم أمري قصدت متسللا إلى السوق أبحث عن أرخص طعام في ذلك الوقت أشتريه بما بقي معي من فضلة مال ، فكان أرخص الأشياء الرز ، فابتعت منه كمية كبيرة بمال قليل ، ووضعتها في حجرتي ، وجعلت أنفرد فيها وقت الطعام لآكل منه . ثم أدركت بعد ذلك أني تركت مسكني إلى آخر ولم أبلغ البنك ذلك . فلما ذهبت إلى البنك وجدت نفقاتي فيه من موعدها ، ولكنه لا يستطيع إبلاغي وحمدت الله أن سترني ولم يعرف أحد كيف قضيت أيامي تلك

وفي سنة ١٩٣٦ — على ما أرجح — اختير رحمه الله ممثلا لمصر في مؤتمر المستشرقين . وقبل سفره بأيام ، قصدت إليه من جريدة « البلاغ » أتحدث إليه في سفره ومهمته ، وموضوع بحثه . فلما تحدث إلي في ذلك بما كفاني طلبت منه صورته لأنشرها مع حديثه ، فعند ذلك رأيت وجهه قد كسته حمرة وقال : وهل أنا رجل كبير حتى تنشر صورتي في الصحف ... ؟ ومع أني حاورته في ذلك محاورة شديدة وألححت عليه إلحاحا شديدا فإنه غلبني بقوله : أرجوك أن تقدر رغبتي وتعفيني من هذا الطلب . فأعفيته وقد زاد إعجابي به وحبي له

* * *

ولكن هذه الصفات نفسها ، من الحياء ، والتواضع ، ورقة العاطفة ، وحب الخير ، وهي كلها فضائل ، كانت سببا في متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ للأزهر . وتعبيري بكلمة « متاعب » فيه كثير من التساهل ، وعندما يكتب تاريخ هذه الفترة ، التي قضاها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر ، سيعرف الناس أي ظلم ، وأي مضض ، لقيه الشيخ في مشيخة الأزهر ، لبعد ، أو تناقض ما بين طبيعته وبيئته إذ ذاك

ذهبت إليه ، بعد عودته من الحجاز ، وكان أمير الحج في سنة ١٩٤٦ وقبل أن يؤوب إلى مكتبه ، وكان في نفسي كثير من الضيق ، بسبب أشياء ظالمة كتبها عنه رجال من شيوخ الأزهر ، فأخبرته بها وقلت له : إن هذا الذي أحدثك به ، كتبه القوم بأسمائهم وأعلنوه على الناس ، وهو متداول بينهم مشهور . ولولا ذلك ما حدثتك به . فغضب رحمه الله حتى اضطرب ، وفارقه أنسه ، وظهر عليه الضيق حتى أشفقت عليه . ثم قال بإصرار وحزم : لن أسكت على ذلك

وبعد أيام رجع إلى مكتبه ، وجاء إليه الشيوخ الذين كتبوا فيه ما كتبوا ، وكان قد قرأه ، فاستقبلهم مرحباً ، وآنسهم ، واستبقاهم ، وودعهم إلى باب حجرته شاكراً ، مكرراً شكره

* * *

وقد عرفني الشيخ ، وعرفته دهراً طويلا ، وأحببته ، وكيف لا أحبه ؟ ثم وقعت في نفسه نحوي جفوة لم أدرك أسبابها إلا بعد موته . فعسى أن يغفرها الله لي ، وأن يغفرها لي الشيخ أيضاً ؛ فقد كان يغفر ، حتى لظالميه

* * *

هكذا كان الشيخ مصطفى عبد الرازق في شبابه ، وهكذا كان في كهولته وشيخوخته

رجل وهبه الله أجل هباته من الجاه ، والمال ، والجد . ووهبه أجل هباته من الخلق الطيب والحياء الجميل ، الذي يزيد صاحبه رفعة ، ومهابة ، ومحبة . وجعل حياته كلها مثلا كريما للعمل الخير الدؤوب الذي يصدق أن يقال في صاحبه إن يسراه لا تعرف ما تقدمه يمينه

من أجل ذلك كان فقده موجعاً أليماً ، ومحبته باقية في قلوب الذين عرفوه فأحبوه ، وأيقنوا أنه من طراز قل أن يوجد في الرجال

محمود الشرقاوي

النجم الذي هوى

زكي مبارك

بقلم تلميذه وصديقه
الأستاذ محمد رجب البيومي



قابل المتأدبون فى العالم العربى نعى الدكتور زكى مبارك بحرارة لاذعة، فقد سمعوا قلمه البليغ منذ أربعين عاما يرن فى مختلف الصحف ، فيثير العواصف الهوج ناقدا مصاولا ، ويرسل النغم العذب شاعراً ملهما ، ويتابع الأحداث الأدبية والاجتماعية مؤرخاً فاحصاً ، ويدبج الأبحاث العلمية والفكرية مؤلفا باحثا ، ثم شاءت طبيعته أن يترك جهاده الدائب فى دنيا الأدب والفكر ، ويستريح بعض السنوات مما كابده فى نضاله الذهنى ، حتى أدركه الموت فى زلة قدم شجت رأسه ومزقت أعصابه ، فطارت روحه إلى السماء تاركة وراءها عبرات تترقرق فى محاجر الأدباء ، وزفرات تتصاعد من صدور تلاميذه وزملائه على السواء .

ولقد بدأ الدكتور حياته — كأكثر أدباء عصره — طالبا بالأزهر الشريف ، وكانت لديه حافظة قوية ساعدته على استيعاب كثير من روائع الشعر العربى فى سن مبكرة ، ووجد الأستاذ المرصفى مولعا بالأدب والشعر بين أساتذة الأزهر فلازمه دروسه ، ونقل أبحاثه فى أوراقه ، وصاحبه فى سمره ولهوه وجده وشغله ، وجعل يعرض عليه ما تجود به قريحته الناشئة من نظم ساذج فيفسح له مجال التجويد والإبداع بما يلقنه من توجيه وتثقيف ، وقد بدأ الطالب الأزهرى يتصل بالصحف ، وينشر إلى جانب قصائده التقليدية فصولا إنشائية يبذل فى تسطيرها ما يملك من جهد وإتقان ، ودفعه طموحه إلى دراسة اللغة الفرنسية فى فترات يختلسها من حياته الأزهرية ، ثم دفعته عزيمته إلى الجامعة المصرية سنة ١٩١٦ فأصبح طالبا يتميز بين طلابها بالنشاط والكفاح ، ووجد بين أساتذتها شيخا يشبه أستاذه المرصفى فى تعلقه بالأدب وكلفه بالنقد ، فأخذ يستمع إلى محاضراته ، ويدون فى صحائفه جميع ما يصله من أستاذه الكبير محمد المهدى ، وقد عكف فى هذا الطور من حياته على مختارات البارودى ، فحفظ أكثر ما بها من قصائد ، ومالت به عواطفه إلى الغزل والنسيب فاستظهر رقائق العباس بن الأحنف ، وحجازيات الشريف ، وروائع مهيار وجميع ما نقله البارودى من الشريف وابن سنان والتهامي ، وقد خرج من ذلك كله بثروة طائلة فى الذوق والشاعرية والأسلوب ، وأخذ يجد الغذاء الدسم الذى يوجهه إلى عشاق الأدب فى صحيفة الأفكار ، فتطلعت الأنظار إلى الأديب الناشئ وعرفت فيه بوادر الألمعية والإبداع

وحين اشتعلت الثورة المصرية الأولى سنة ١٩١٩ جرفت فى تيارها زكيا مباركا ، فساهم بقلمه فى إذكاء العاطفة الوطنية ، وخطب مع الأستاذ القاياتى فى أول احتفال وطنى بعيد الجهاد ، ومضى إلى الأزهر الشريف ، فجعل من منبره مذياعا قويا ينشر على الملأ حماسته واندفاعه ، وكان الأستاذ أبو العيون ينتدبه للخطابة بالفرنسية حين يحضر إلى الأزهر بعض الأجانب من الفرنسيين ، وقد أدى ذلك إلى غضب السلطة الإنجليزية فزجت به فى غياهب الاعتقال ، وقالت عنه جريدة الأهرام بعد أن نشرت نبأ اعتقاله بتاريخ ١/١/١٩٢٠ « إنه شيخ معروف بذلاقة اللسان والنظم الرشيق وله فى كل مجتمع كلمة يلقيها أو قصيدة يتلوها ، وأصبح فى معتقله بالإسكندرية زميلا للقاياتى ودراز وأبى العيون وغيرهم من خطباء الثورة الأحرار »

وقد تقدم إلى نيل إجازة الدكتوراه فى الآداب سنة ١٩٢٤

بعد أن نال إجازة الليسانس ، فكتب رسالة عن أخلاق الغزالى ، وكان الشاب الجامعى ممتزا بمواهبه فهاجم حجة الإسلام مهاجمة قاسية ، وتكشفت أثناء المناقشة جوانب خطيرة أثارت كثيرا من الحاضرين عليه ، فتقدم الأستاذ اللبان لمناقشته ، واحتدم الحوار احتداما أثار الضجة واللجاج ، وأعلن رئيس اللجنة الدكتور منصور فهمى أن الرسالة الجامعية محاولة عقلية يخطئ فيها الطالب ويصيب ، وذلك لا يمنع من نجاحه بدرجة مشرفة. ثم انتقل صدى الرسالة إلى الصحف ، فاندفع الدكتور مبارك يناظر الأستاذين الشيخ يوسف الدجوى والشيخ أحمد مكى وغيرهما من كبار العلماء مناظرة حادة ، مهدت لطريق الشهرة والذيوع، وإن عادت على عقيدته ببعض الأوهام

والحق أن الدكتور مبارك كان يحرص على مخاصمة الجمهور فيما يكتب ويذيع ، فهو يتعمد مزالق الزيغ تعمدا ، كأن له حظا فى الثورة والضجيج . ألف فى هذا الدور كتابيه « حب ابن أبى ربيعة » « ومدامع العشاق » فقذف بنفسه فى مطارح مخيفة ، إذ أسهب فى الحديث عن النبوة والعشق ، ومنزلة الهيام من الدين ، مما يثير عليه النوازع ، وإن جذب بذلك كثيرا من الشباب إلى رياض الأدب العربى ، فهاموا بالشعر الجيد ، والنظم البليغ ، وعرفوا الكثير عن عمر وكثير وجميل ! ! وقد انتفع الدكتور بمختارات البارودى فى فصول كتابه «مدامع العشاق» فنقل باقات عبقة من زهورها اليانعة وقدم إلى القراء كثيرا من رقائق ابن رزيق والطغرائى وابن نباتة السعدى وابن الخياط ، بعد أن كانت الكثرة الغالبة من الشباب لا يتجاوزون البحترى والمتنبى وأبا تمام ! !

وقد عين سنة ١٩٢٥ معيدا بكلية الآداب ، وكان يشرح لطلابه كتاب « مغنى اللبيب » فى النحو بتكليف من الدكتور طه حسين . وأكد صلته فى هذه الفترة بجريدة البلاغ فكان يكتب الصحيفة الأدبية بها دون انقطاع . ولم يعش فى ماضى الأدب القديم ، بل أخذ يتابع الحركة الفكرية فى مصر ويتعهدها بالنقد والجدل العنيف . وقد كتب فصولا طويلة عن شوقى ومعارضاته للشعراء ، وهى مجموعة فى كتابه « الموازنة بين الشعراء » مع أخوات لها تشابهها فى التحليل والاستنتاج ، وقد لاحظت وأنا أطالع هذه الموازنات تعصبا ملموسا لشوقى من زكى، فهو يفضله دائما على من يزنه به ، وكنت أعجب حين أجد المبارك لا يستر ميوله الشخصية عن القراء ، وأحار فى تعليل ذلك ، حتى عرفت من بعض ما كتبه الدكتور ، أنه أخذ مبلغا كبيرا من ذهب أمير الشعراء ، فرفعه إلى السماء . ولست أريد أن أخفض من قيمة المعارضات الشوقية ، فهى تحتل مكانها فى التاريخ الأدبى دون نزاع ، ولكنى أعلن أن الدكتور قد خلع عليها من الإطراء ذيولا ضافيات

ولم يقنع مبارك بدرجته العلمية التى نالها من الجامعة المصرية، فسافر إلى باريس ، واتفق مع جريدة البلاغ أن يمدها بمقالاته وأبحاثه نظير ما تمنحه من أجر يذلل به صعوبة الاغتراب ، وأخذ يوالى البلاغ بآثاره العلمية تارة ، وبمشاهداته وخطراته عن باريس تارة أخرى ، فوق ما يضطلع به من تحضير رسالة علمية لنيل الدكتوراه من السوربون ، وتجمع له من ذلك كتابه المعروف عن ذكريات باريس ! ! ثم وفقه الله فوضع رسالته عن النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، وهو كما يعلم القراء أخصب عهود العصر العباسى وأحفلها بالإنتاج الفكرى ، والشخصيات اللامعة من ذوى النقد والصيال . وقد نال برسالته القيمة إجازة الدكتوراه فى الآداب من السوربون . وأقيمت له ثلاث حفلات تكريمية بباريس والقاهرة والإسكندرية . ويخيل إلى أن كتاب زهر الآداب للحصرى قد أوحى إليه باختيار موضوع رسالته ، فهو سجل حافل بالآثار الفنية لأعيان البيان،وقد شرحه الدكتور وحققه ، ووضع فهارسه وعرف بأعلامه ، فأتاح له ذخيرة ثمينة تستحق العرض والتحليل ، فاندفع إلى تسطير رسالته العظيمة ، التى يعدها الأستاذ أحمد أمين أعظم آثار الدكتور وأجدرها بالاهتمام

ولكتاب النثر الفنى — على رغم مكانته المحترمة — نقدات توجه إليه ، وقد اعترف بها المؤلف ، ولعل أبرزها ما نلاحظه فى أسلوب الدكتور عامة من سيطرة عواطفه وأخيلته على يراعه ، فى الأبحاث الفكرية الدقيقة ، فقد ارتضى لنفسه أن يكون شاعرا فى تحقيقاته العلمية أو يستمد وقودها من القلب والعقل والخيال . وقد قال زكى عن ذلك « وهذا عيب فى التأليف ولكنه

هيب جميل يقع من المؤلفات العلمية موقع الخال من خد الحسناء»

وحين عاد الدكتور من باريس لم يركن إلى الدعة والراحة ، بل واصل حملاته الأدبية فى مختلف الصحف، وكان له مع أكثر أدباء العصر الحاضر سجال وملاحاة ، فهو يقرأ القصيدة أو المقالة أو الكتاب لغيره من الأدباء ، فتنفسح أمامه طرق واسعة للاختلاف والنقاش ويثيرها معركة عنيفة ، ينتشر غبارها فى الأفق ويكثر حولها الضجيج والخصام ، وقد حاولت أن أحصر جميع من ساجلهم الدكتور مبارك فأدركنى العجز القريع !! ومرت أمامى أسماء كثيرة لهؤلاء المتحاورين مع الدكتور فى حومة النقاش ، وفى طليعتهم أحمد زكى باشا وعبد الله عفيفى ويوسف الدجوى وسلامة موسى ، وحسن القاياتى ومحمد عبد المطلب ، والسباعى بيومى ، ومحمد مسعود ، وغيرهم ... ومع هؤلاء أناس ناقشهم الدكتور وآثروا الراحة فلم يتركوا معه فى ميدان كطه حسين وعبد العزيز البشرى وأحمد أمين وفريق من أعلام الأدب فى الشام والعراق

ولقد كان زكى فخورا بمعاركه الأدبية ، وطالما تحدث عنها فى كثير من التيه والإعجاب ، وقد قال عن نفسه « أنا لا أرى الحياة إلا فى حومة القتال ، وليس الأدب عندى مزاحا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والخيال » كما نقل فى آخر الموازنة بين الشعراء قول بعض أصدقائه عنه « إن مباركا رجل ثائر لا تروقه الحياة ، ولا يستطيب العيش إلا بالنزوات العلمية ، ولو جاز وصف المساجلة بمعركة حربية، وتشبيه الأدباء بالجيش لمثلت مباركا ضابطا من الضباط يزدان صدره بالأوسمة والنياشين لكثرة ما نازل من الأقران »

وقد كان مبارك يعتقد أنه طالب علم مدى الحياة ، فهو لا يعرف للاجازات العلمية حدا تقف عنده ، بل يحب أن يجلس دائما أمام الأساتذة ، مهما امتدت به السن ، ونال الدرجات ، ليجد أمامه فرصة متاحة للصيال والنقاش . وقد تقدم بكتاب ضخم من التصوف الإسلامى وأثره فى الأدب والأخلاق لينال الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة فؤاد ، وتألفت لجنة من كبار أساتذة الجامعة لمناقشته وحسابه ، فمنحته إجازة الدكتوراه فى الفلسفة بمرتبة الشرف ، وكتاب التصوف مشهور متداول ، ومزيته الصحيحة — كما قال المرحوم جاد المولى بك « أنه لم يؤلف للدعوة إلى التصوف أو الهجوم عليه ، وإنما ألفه مبارك فى نقد التصوف فبين ما فيه من محاسن وعيوب ، وكشف عما يتضمنه من قوة وضعف ، فى صراحة رائعة وأسلوب متين »

وأجدنى مضطرا إلى أن أذكر أن الروح الأدبية قد جمحت بالدكتور فى بعض مواضيع الكتاب ، فلم تحدد بعض حقائقه العلمية تحديدا يتكشف للقارئ من أقرب طريق ، وقد أجهدت نفسى كثيرا لأفهم ما قاله الدكتور عن وحدة الوجود ، فلم أخرج بطائل مع أنه ملأ الدنيا تشدقا بما كتبه عنها فى التصوف. وقد أكون ذا عقل واهن لم يستطع السير فى هذا المدرج الدقيق

وكان الدكتور قد خصص جانبا من كتابه للبحث عن المدائح النبوية ، وأطال القول فى صلتها بالتشيع ، كما تعرض إلى الكميت ودعبل والشريف وغيرهم من شعراء البيت الهاشمى ، واتجه إلى البردة ومعارضاتها ، وما تمخضت عنه البديعيات النبوية من مباحث أدبية هامة ، ولكن اللجنة المؤلفة لبحث الكتاب قد أشارت بحذف هذا الجانب من القول لبعده عن مدلول التصوف ، فظهرت المدائح النبوية بعد ذلك فى كتاب خاص ، ولعله أول بحث مفصل يعنى بتاريخ هذا الباب ، وقد مزج فيه المؤلف بين العرض والتحليل والتاريخ والاستنتاج فى طراز موفق شفاف

وقد كان انتداب زكى مبارك إلى التدريس بدار المعلمين العالية فى بغداد ذا أثر هام فى حياته الأدبية ، إذ أن الفترة القصيرة التى مكثها بالعراق قد ألهبت قريحته وأذكت نشاطه فسطر مئات الصحف فى الدعوة إلى العروبة ، وتوثيق الصلات بين القاهرة وبغداد ، واتصل برجال الفكر والسياسة فى القطر الشقيق فنزل بينهم نزلا كريما ، وقد وصف الآثار العربية بحاضرة العراق وصفا بديعا ، كما نقل للقراء فى شتى بقاع العربية، صورا خلابة عن غابات النخيل فى البصرة ، وسجع الحمائم فى الموصل ، وبقايا السحر فى بابل ، ورسم تألق القباب العلوية فى النجف والكرخ ، وألقى عدة محاضرات بنادى القلم العراقى ، وقاعة كلية الحقوق ، ونادى المثنى ، والإذاعة العراقية ، حول الثقافة العربية ، وجمع كتاب ليلى المريضة بأجزائه الثلاثة كثيرا

من آرائه التي تحدد صلة مصر بالأمم العربية ، كما شرح معضلات الشباب في مصر والعراق موضحا ما يراه من الحلول والأدواء... ونحن نحمد للدكتور هيامه بالوحـــدة العربية ، وكفاحه من أجلها أطيب كفاح ، وللقارئ أن يستعرض عناوين مقالاته في كتاب وحي بغداد ليعلم أي جهد قام به الدكتور في توثيق الصلة بين القطرين ، فقد تكلم عن العروبة في مصر تارة ، وعن المذاهب الأدبية المصرية طورا ، وعن الجامعة العراقية وما يجب أن يبذل في سبيل إنشائها من مشاق ، . . . وحين رجع إلى مصر ، تحدث عن الفن المصري في العراق ، وعن الأندية الأدبيـة في حاضرة الرشيد ، وعن نهضة التعليم في دار المأمون ، وأطنب في ذكرياته من دجلة والفرات والرصافة والجسر وليلى وظمياء ، وفي كتابه « ملامح المجتمع العراقي » أحاديث طيبة عن رجال العراق وقد نشرت أكثر فصوله وفصول ليلى المريضة بمجلة الرسالة الغراء...

وقد رجع الدكتور إلى مصر ، ومعه فوق ما تقدم من كتبه ، مؤلفه عن عبقرية الشريف الرضي ، وهو مجموعـة محاضرات أدبية ألقاها المؤلف في قاعـة كلية الحقوق ببغداد ، فكان أول باحث خص الشريف بجزءين كبيرين ، وقد استمع إليها كثير من الأساتذة والطلاب ، وصرح الدكتور أنه وقف من الشاعر موقف الصديق ، فتحدث كثيرا عن محاسنه وأشـار إلى عيوبه برفق ولين ، وقد قسم مواضيع الكتاب تقسيما نسبيا لم تتضح معـــالمه ورسومه ، إذ لاحظت أن ما كتبه عن غراميات الشريف يصلح أن يكون بين ما كتبه عن حجازيات الشاعر ، وما كتبه من غرائب الوفاء يصلح أن يندرج فيما يليه من الأبواب دون التباس ، وقد أدت سرعة المؤلف وعجلته إلى ذلك ، ولست أجد ما أقوله غير أنه سطر أبحاثه بروح الشاعر الذي لا ينسى التحليق والطيران هذا وقد عين الدكتور مبارك بعد عودته من العراق مفتشا للغة العربية بالمدارس الأجنبية ، وكان عمله الرسمي لا يكلفه جهدا كبيرا ، ففرغ للنشاط الأدبي ، واتخـذ من مجلة الرسالة الغراء ميدانا للصيال والحوار ، وكانت هذه الفترة من حياته ألمع عهوده الزاهرة ، حيث اعتبره المتأدبون في العالم العربي قائدا يتولى توجيه الشباب في صحيفة ممتازة ، وأخـذوا يتابعون أبحاثه وقصائده ومعاركه في اهتمام ، وكان يسأل فيجيب ، ويرشد فيطاع

وقد حال على صفحات الرسالة كثيراً من الكتب الأدبيـة التي تقررها الوزارة لأعلام الأدباء في مسابقة التوجيهية ، كفيض الخاطر ، ووحي الرسالة ، ومطالعات في الكتب ، والمختـار ، وإبراهيم الكاتب ، وحـديث عيسى بن هشام ، والمنتخبات ، وتحرير المرأة ، والشوقيات ، وديوان صبري وحافظ ، وغيرها من أشهر المؤلفات . وكان يبـدأ مقاله بمقدمة عن الكاتب ، مشيراً إلى طريقته في التصوير والعرض ، ثم يحلل أبواب الكتاب موجهاً الأنظار إلى نقطه الرئيسية وعناصره الهامة ، ويختم بحثه بإرشادات للطلاب تهديهم إلى طريقة الانتفاع بالكتاب ، وهو بذلك يفتح أمام الناشئة طرق البحث والاستيعاب ، وقد كثرت خواطره الطريفة التي كتبها تحت عنوان « الحديث ذو شجون » ورأى فيها الناس فنـا صادقاً يعرض خوالج الكاتب ونوازعه في صور مشرقة أخاذة ، وينتقل بالمقول من موضوع إلى موضوع كما ينتقل الطائر من غصن إلى غصن ، دون أن يجـد القراء أثراً للسآمة والتكلف ، بل كانوا ينتشون بنسـيم هادئ يحمل عبير الرياض ، ولو استمر الكاتب بوضعه في الرسالة لأسـعد القراء بلطائفه الرقاق ، ولكنه هجرها بعـد سبعة أعوام ، وكنت أسأل عن سبب هذه القطيعة بإلحاح حتى وجدت الإجابة في ديوان « ألحان الخلود » إذ أعلن الدكتور أنه تضايق كثيراً حين سمح الأستاذ الزيات للأستاذ النمراوي بنقـد الدكتور في بعض أبحاثه بالنثر الفني !! فكان ذلك مدعاة القطيعة والحرمان !! وليت شعري كيف يضيق المبارك بالنقد وقد شب في ميدانه ، وصال في حلبته راكباً جواده ، وشاهراً سيفه ؟ ثم هل يستطيع صاحب الرسالة أن يمنع إنساناً ما من النقد في حدود النهج العلمي الصريح ؟ إني لأذكر أن الأستاذ الزيات قد كتب مقـالا من إصلاح الأزهر بالرسالة فرد عليـه أستاذنا المغفور له الشيخ محمود النمراوي ردا صاخباً ، وأبى الزيات أن يحذف حرفاً واحداً مما كتب الناقد

المتيف ، فكيف يجزع الدكتور من نقد على يريء ؟ !

هذا ما كان !!

وقد امتحن الدكتور بتحرير البلاغ بعد الرسالة ، وواصل نشر أحاديثه ذوات الشجون ، ويؤسفني أن أذكر أنه حاد كثيراً من النهج الذي سلكه بالرسالة ، فبعد أن كان يذكر طرائف الأدباء وينقد آثارهم الأدبية وحدها ، أخذ ينقد السلوك الشخصي ويتتبع ما يصله من الهنات صدقاً وكذباً ، وقد يختلق — غفر الله له — المثالب اختلاقاً ويلصقها بالناس . وقد هاجم وزير المعارف إذ ذاك مهاجمة أدت إلى فصله من الوزارة ، فتعرض للبؤس تعرضاً مؤلماً . . . ثم تداركه الأستاذ على أيوب فألحقه بالقسم الأدبي في دار الكتب المصرية ، ومكث عدة أشهر لا يقبض مليما واحداً ، فتشعبت همومه ، وعيل صبره ، واستسلم إلى السكر والتبذل والاستخفاف ! ! وكأنه حن إلى الإنتاج الأدبي فجمع أشعاره الكثيرة في ديوان شامل أسماه « ألحان الخلود »

ولن أتعرض إلى منزلته الشعرية الآن فني نيتي أن أكتب عنها بحثا مستقلا بعد حين ، ولكن أذكر أن الدكتور قد مهد لأكثر قصائده بمقدمات مؤلمة كان الأفضل ألا يكتب منها حرفا واحدا ، فهي — في أكثرها — تجريح شنيع لأناس أفاضل يحتلون منازل كريمة في عوالم السياسة والأدب والاجتماع . والعجيب أن مؤلفات الدكتور السالفة تحفل بالثناء عليهم وتعدد مآثرهم البيض في شتى ميادين الحياة !! كما لم يدخر وسعا في التحدث عن نزواته ولحظات ضعفه ، كأنه مولع بفضيحته والتشهير بنفسه على رءوس الأشهاد . وأنا حين أعلل ما انحدر إليه الدكتور في خريف حياته من إسفاف ، أحيل ذلك إلى ما وقر في ذهنه من أن الأدب لا يبلغ ذروته إلا إذا كشف عن النزوات البشرية وجلا للقراء ما يكمن في أعماق الكاتب من رواسب هابطة ، وشهوات مسفة !! وذلك مذهب محرج لاحت بوادره — بصورة خافتة — قبل ذلك في بعض مؤلفات الدكتور ، ثم اشتملت على صفحات البلاغ وفي ديوانه ألحان الخلود بنوع خاص !!

وقد كان الدكتور ذا صلات كبيرة بأعلام عصره في الأزهر والجامعة ودار العلوم والصحافة والجمعيات العلمية ، فسجل عن تاريخهم الشيء الكثير في مؤلفاته ، حتى لتصلح أن تكون مرجعا للحركة الفكرية في العصر الحديث ! وفي كتاب الأسمار والأحاديث تشريح هام لآراء المفكرين من أدباء وشعراء ، وقد أجرى الدكتور على ألسنتهم كثيرا من المعاني التي يحتمل أن تصدر عنهم ، إن لم يكن بعضها صورة حقيقية لما قالوه . وقد اختص المدرسة الاتباعية في الشعر بحوار كبير ، ونقل كثيرا من آراء الهراوي والأسمر والجارم والزين وعبد الجواد رمضان والقاياتي وعبد الله عفيفي ، وكلها تدور حول الشعر والشعراء في نسق مؤتلق وضيء . ومهما يكن من شيء فسيظل القراء يذكرون لمبارك أسلوبه الجميل الرقراق ، ويشهدون أنه قد نقل الغزل الرقيق من ميدان الشعر إلى ميدان النثر ، فوصف في مقالاته العواطف الثائرة ، وشرح الأحاسيس الملتهبة ، ونقل للقراء زفرات مبثوثة من الوجد الصارخ ، إذ تحدث عن مسارح لهوه وملاعب صباه في سنتريس وأسيوط وباريس ومصر الجديدة وبغداد وحلوان ، وأحسن القول في صدود الحسان ، ومعاقرة الكؤوس ، ونزق الصبا ، ومفاتن الشباب ، في طراز فاتن يأخذ بالألباب

لقد كان الدكتور مبارك — رحمه الله — حركة دائبة مؤثرة في الأفق الأدبي ، ولو قدر له أن يجتاز الأعوام الثمانية التي مرت عليه في خريفه كما اجتاز عمره السالف بين الصحف والأوراق لكان ذا شأن عظيم ، ولكن القدر شاء أن يأسف عليه الأدباء مرتين ، فهم يأسفون لما غمره في أخريات أيامه من القلق والاضطراب ، كما يأسفون لرحيله الصامت الساكن بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس ، لجف الغدير المترقرق ، وصوح الزهر الناضر ، وطار البلبل الصداح

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أبوتيج — محمد رجب البيومي

صور إسلامية رائعة ...

للاستاذ عيسى متولى

كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يتأهب لإحدى الغزوات ، وأخذ يعبىء الشباب الميدان ، فإذا بغلام — هو رافع بن خديج — يندس بين الصفوف ، ويتطاول على أطراف قدميه ، ليبدو للرسول الكريم فى طول من هم أكبر منه سنا .. فيضمه إلى من يختارهم للميدان !..

فأين من هذا الغلام أولئك الشبان الذين يتهربون من الجندية ، ولو كلفهم ذلك بتر أيديهم ، ليظهروا بمظهر العجزة .. وأولئك الذين يشيعهم أهلهم بالبكاء والنحيب .. كأنما يساقون إلى الموت !..

. . .

لما علم عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بعشرة آلاف درهم أمر بمصادرته .. وأنبه بقوله : هلا بعته وأطعمت بثمنه عشرة آلاف جائع !..

ونحن لا نطالب من آتاهم الله بسطة فى المال بأكثر من أداء الزكاة .. التى فرضها الله عليهم . فيكون فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم !..

. . .

أصيب أحد الصحابة بعلة استدعت بتر جزء من جسمه ، فسألوه عن الوقت الذى يراه مناسبا لهذه العملية ، فاقترح البعض أن تجرى له عملية البتر أثناء نومه ، فلا يشعر بألم .. ولكن الرجل المؤمن قال : لا ... ابتروا ما تشاءون من جسمى .. وأنا أصلى بين يدى الله !!.. ومعنى ذلك أنه فى صلاته ينصرف بكل حواسه ومشاعره إلى الله !..

فأين من هذا الصحابى هؤلاء الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .. وإذا صلوا ملأت صدورهم الوساوس .. ومشاغل الحياة ... لاهية قلوبهم !..

. . .

ويروى لنا القرآن الكريم قصة « سليمان » عليه السلام ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب .. ففاتته صلاة العصر وهو يستعرض الجياد ... فأمر أن يردوها إليه ، هذه الجياد التى شغلته عن الصلاة ، وطفق مسحا بالسوق والأعناق ... حتى قضى عليها .. تكفيرا لذنبه !..

فأين من هذا العبد الأواب ، أولئك الذين تصرفهم مشاغل الحياة عن المحراب .. ويشرون الحياة الدنيا بالآخرة .. فتمتلىء بهم المقاهى ، ودور اللهو ، وهم عن ذكر ربهم غافلون !..

. . .

هذه صور رائعة ، مما يزخر به تاريخنا الإسلامى ، أسلط عليها أنوار « الرسالة » الوضاءة .. ليتدبرها من كان له قلب .. أو ألقى السمع وهو شهيد ..

والسلام على من اتبع الهدى !..

عيسى متولى

دفاع عن العباسة بنت المهدى

للأستاذ عبد الواحد باش أعيان العباسى

— ١ —

كلما كشف الكتاب والباحثون النقاب عن وجوه العصر الذهبى للدولة العباسية ، وخاصة فى عهد الخليفة هرون الرشيد ، تقودهم تتمة البحث أن يتطرقوا إلى البرامكة وأعمالهم ومآثرهم فى الدولة ، ثم استئصال نفوذهم والتنكيل بهم على يد الخليفة الرشيد . ولقد أضحى هؤلاء الكتاب مرغمين أن يذكروا العباسة بنت الخليفة المهدى وأخت الخليفة الرشيد كلما بحثوا فى تلك النكبة وعواملها ، لأن بعض كتب التاريخ العربى ، ذكرت فى اقتضاب ، وبعضها قد أسهب فى وصف العلاقة بين العباسة وجعفر البرمكى وزير الرشيد وعضده فى إدارة أمور الدولة العباسية

وتلك الروايات وإن تباينت فى السرد ، تتفق فى هذا المعنى : وهو أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر ومنادمته فى مجالسه الخاصة ، وكذلك ما كان يصبر عن أخته العباسة فى الوقت نفسه ، لذلك ابتدع أمرا فريدا ، وهو أن عقد لجعفر على العباسة ليحل له النظر اليها ، واشترط — عليها طبعا — أن لا يكون اجتماعهما إلا بحضرته ، وأن لا يتعدى — هذا الزواج — الحديث والنظر ... وبعد هذا كانت العباسة تحضر مجالس الرشيد مع جعفر فتقضى ساعات فى هذا السمر البرئ ..

ثم يستمر الرواة فى تنظيم خيوط الرواية ونسجها لتظهر النتيجة المتوقعة من اجتماع شباب جميل ، بفتاة رائعة الحسن وضاءة المحيا

فقد ذكروا أن قد حدث اتصال سرى (وتفنن بعض الرواة فى كيفية هذا الاتصال) بين جعفر والعباسة ، فأنتج (أطفالا)

ولما كانت قصور الخلفاء والملوك لا تخلو من عيون ودساس لذلك انكشف للرشيد أمر هذه العلاقة (الآثمة) بين جعفر البرمكى وأخته العباسة ، فثار غيظا ، وانفجر غضبه بنكبة مروعة فقتل جعفر ، وحبس أباه وبقية إخوته وصادر أموالهم ، واشتط فى الفتك بمن كان يمدحهم ، أو يقف باكيا على قبورهم ، أو يومئ إلى رزيئتهم ...

افترق المؤرخون والكتاب — قديما وحديثا — منذ هذه الرواية التاريخية بين منكر لحدوثها ، مشمئز من هذه الفرية الباطلة والتشنيع المدبر للحط من مروءة الرشيد وغيرته ، وبين مصدق لها ، وغير مستبعد أن تكون واقعة لا محالة ، وقد اقتنع البعض بأنها كانت السبب الأول فى نكبة البرامكة ، وتساهل البعض الآخر فجعل تلك العلاقة من أسباب نكبتهم ... وقد جاهر بهذا الرأى الأخير الدكتور أحمد أمين بك فى كتاب الهلال الذى أصدره عن هرون الرشيد . فقد عدد ثلاثة أسباب للنكبة : (أولها) غيرة الرشيد من سلطانهم و (ثانيا) عطفهم على العلويين و (ثالثا) علاقة جعفر بالعباسة . ولتوطيد صحة السبب الثالث أبدى الدكتور رأيا فريدا لم يسبقه إليه باحث إذ قال :

على أنه ما يدرينا ، لعل الرشيد نشر فى الناس علاقة جعفر البرمكى بأخته ، ليستثير كره الناس ويستخرج غضبهم ومقتهم ...

وقد استغربت مع كثيرين أن يطرح الدكتور هذا الرأى بعد أن اعترف للرشيد (بكبر العقل ، وعلو الهمة ، وكرم النفس ... وحدة المزاج) فكيف يتفق من كان فى هذه السجايا أن يذيع فى الناس خبرا يمس عرضه ويحط من كرامة بنى هاشم ! وما الذى يهم سواد الناس من تلك الرواية سوى التشنيع بها على الخليفة وأهله . وإن كان ما قال الدكتور حقا فليس فى الأمر حكمة أو بعد نظر من الرشيد إن يحط من شأن أخته لدعاية لا تثير نقمة ، وإنما تبعث على الاشمئزاز والتندر

ثم نظرة أخرى فى أمر — هذه الدعاية — فإنها لو كانت أذيعت فى الناس قبل نكبة البرامكة فما من أحد كان يستطيع أن يجهر بالكره والعداء مادام الخليفة يظهر مودته لهم وحدبه عليهم حتى اللحظة الأخيرة

لذلك فإننا نستبعد أن يكون لهذا الرأى صلة بالسبب الذى سيرت تلك الرواية من أجله . ونعتقد اعتقادا جازما بأن هذا الخبر من علاقة جعفر بالعباسة ، كان فرية مفرضة ، ليس لها ظل من الحقيقة ولا أساس من الواقع ، ونرجح أن يكون قد أذيع

قبل أيام النكبة، ومصدره آل برمك أنفسهم إن لم يكن جعفر البرمكي ذاته؛ لغرضين اثنين:

أولا — كسب عطف الناس وتمكين سلطة جعفر من نفوسهم، وليرسخ تمثال الهيبة لوزير الدولة وصهر الخليفة في القلوب

الثاني — أن يحمل الخليفة العباسي، أمام مأزق ضيق فالأمر يمس عرضه وشرف أسرته، فإن فعل ما يضر بجعفر لا يدرك الناس سببا سوى تلك العلاقة بين جعفر وأخت الخليفة عندئذ يهان الخليفة في عرضه ومروءته. وقد تحقق هذا الغرض بعد قتل جعفر، ومازال حتى اليوم من صدق تلك الفرية الدنيئة

وفي ثنايا كتب التاريخ ما يشير إلى أن ذلك الخبر كان فاشيا في الناس آنذاك وكان عامتهم ترجح وقوعه، فقد ذكر الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب في الصفحة (٢٠٤)

«قال عبد الله بن يحيى بن خاقان: سألت مسرورا الكبير — في أيام المتوكل وكان قد عمر إليها ومات فيها — عن سبب قتل الرشيد لجعفر وإيقاعه بالبرامكة فقال. — كأنك تريد ما يقوله العامة، فيا ادعوه من أمر المرأة وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟ فقلت له ما أردت غيره، فقال: لا والله ما الشيء من هذا أصل. ا ولكنه من ملل موالينا وحسدهم»

إن صحت هذه الرواية للجهشياري — وهي كذلك — فيكون تأكيد مسرور القول الفصل في تفنيد تلك المزاعم وهدمها، لأنه كان أقرب الناس من الرشيد وأعلمهم بخفايا القصر ودسائس الحاشية المقربين! ولتحدثيها (إن كانت حقا) غير هياب ولا وجل

— ٢ —

لقد بحث بعض المؤرخين الأقدمين والمحدثين الذين تبصروا في ظروف وقعة البرامكة والعوامل الجوهرية التي دفعت بالخليفة الرشيد للقضاء عليهم وتعرضوا الخبر علاقة العباسة بجعفر فأنكرته نفوسهم، ولما لم تستسغه عقولهم أن يكون سببا من أسباب نكبة البرامكة هدموا الخبر وانكروا أن يكون له ظل في الواقع، كما توصل لذلك ابن خلدون — من الأقدمين — فقد لخص في مقدمته صفحة ١٥ رواية النكاح والاتصال أولا ثم نقدها من ناحية الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية التي تتمتع بها العباسة عن مواليها آل برمك حيث قال: (.. وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها، وأبويها، وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده. والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي (ص). ابنة خليفة أخت خليفه، محفوفة بالملك العزيز، والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة، من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، البعيدة من عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها .. (حتى يقول) وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم إبائه؟)

ومن مؤرخي العصر الحديث الذين لم يقتنعوا بذلك الخبر المختلق ولم يعتبروه أساساً لنكبة البرامكة أو طرفا منها. المرحوم جورجي بك زيدان، في كتابه تاريخ التمدن الإسلامي فقد ذكر أن: (الرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم على سلطانه.) وهو الوجه الصحيح لتفسير سبب النكبة

وكذلك توصل الأستاذ محمد فريد وجدي بنتيجة البحث الدقيق والتحليل المنطقي أن علاقة العباسة بجعفر البرمكي، إنما كان خبراً مختلقا للحط من كرامة الرشيد ومروءته، فقد ذكر في بحثه عن (جعفر بن يحيى البرمكي، لماذا قتله هرون الرشيد) بالعدد العاشر من مجلة الهلال التي صدرت في أول أغسطس سنة ١٩٤٠؛ أن من جملة الروايات في سبب النكبة:

أولا — أن الرشيد كان له أخت تدعى (ميمونة) يحب أن تكون في مجلسه مع جعفر، فرأى أن يعقد لهما زواجا صوريا ليحل لجعفر أن يراها دون أن تكون له زوجة فبلغ الرشيد أنها ولدت منه ثلاثة أولاد وهي حبلى في الرابع، فاستشاط من ذلك غيظا، وأمر بقتل جعفر والتنكيل بأسرته

ثم نقد الأستاذ فريد وجدى هذه الرواية بلباقة ودقة تفنيداً يقرب من وجهة نظر ابن خلدون فى الأمر — فقال: (ليس بمعقول ، فإن الرشيد لم يصل من قلة التبصر وعدم النخوة إلى حد أن يعرض أخته لأجنبى فى مجالس لهو وشرب وغناء وهما فى ميعة الصبا . لو كان السبب هو هذا لما كان هنالك من حاجة إلى إحاطته بهذه الأسوار من الكتمان ، بل وامرف ولم يحصل فيه خلاف ، فإن مجرد قتل ميمونة أخته وأولادها ، كان يفضح الخبر إلى حد بعيد ، ولما كانت تضطر (علية) أخته أن تقول — كما حكاه ابن بدرون :

« يا سيدى … ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفر . فلأى شئ قتلته ؟ » فأجابها هرون بقوله : « ياحياتى لو علمت أن قميصى يعلم السبب فى ذلك لمزقته . » فهل كان يخفى على مثل (علية) وهى من أعظم نساء الأسرة المالكة ما حل بأختها ميمونة وأولادها ؟ الناس مغرمون بسماع الغرائب ورواياتها ، وهذا مجال يجد فيه الخراصون مكانا رحبا لإشباع نهمهم فى الاختلاف ، فأفرغوا مافى جعابهم حول هذه المسألة وانتهبه الناس انتهابا وزادوا عليه ما شاءوا)

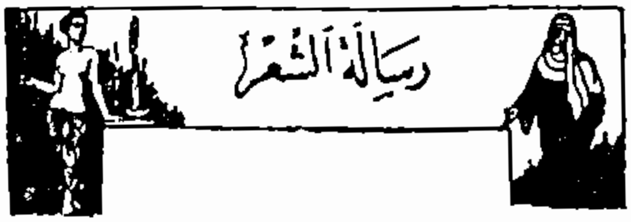
دحض هؤلاء المؤرخون الثقات تلك الرواية التاريخية المدسوسة عن علاقة العباسة بجعفر بقياس للعاطفة فيه نصيب وافر ، وإننا نجد ، بالإضافة لذلك أن فى استقراء الحوادث والاستنتاج من الوقائع والروايات التاريخيـــة ما يكشف عن بطلان تلك العلاقة ويؤيد الرأى الذى ألمعنا إليه فى صدر هذا المقال بأن هذا الخبر قد خلق وأذيع لغرض مقصود

فلو تعقبنا الخبر فى صفحات كتب التاريخ القديم نصطدم لأول وهلة فى اضطراب وتباين فى تعيين اسم الأميرة العباسية التى كانت لها علاقة أو (زواج صورى) مع جعفر البرمكى ، فبعض المؤرخين ذكر اسمها (العباســـة) وغيرهم ذكر أنها (ميمونة) وهذا الاختلاف فى تعيين اسم بطلة حادثة مروعة — فى حينها — هزت الدولة العباسية من شرقها إلى غربها

لا يصح أن يختلف فى معرفة اسمها سواد الناس بل خاصتهم ، لذلك فلا حرج أن يرتاب ذوو الرأى بصحة وقوع تلك الرواية

ومما تزيد فينا الريبة والشك بتلك الوصمة التى ألصقت بالعباسة أن كتب التاريخ والأدب لم تتحدث عن مزايا خاصة للعباسة ترفعها مقاما عن سائر نساء القصر والأسرة المالكة لا فى الرأى ولا فى الأدب والشعر أو أى شئ آخر ، فلم كان الخليفة يصبر عن زوجته زبيد ، أو أخته (علية) التى كانت تجيد أكثر من فن من فنون الشعر والأدب والغناء ، أو عن جواريه وإمائه مثل ذات الخال ودنانير ، وخاصة فى ذلك المجلس الذى كان يعقده للشرب واللهو والسمر مع وزيره جعفر . فإن كان ذلك المجلس — كما ذكر — للشرب واللهو ففى جواريه وإمائه غنى عن حضور أخته العباسة، وإن كان للرأى والمشورة ، فالدليل واضح بأن الرشيد قد أبعد النساء من التدخل فى أمور السياسة وشؤون الدولة

وقد يتبادر هذا السؤال للذهن بأنه : لم كانت العباسة ، ولم تكن أختها علية ضحية تلك الدسيسة ؟ بلا ريب أن الخبر كان يقبر فى مهده آنذاك لشهرة علية ومنزلتها ، ولأن العباسة لم تتمتع بشهرة واسعة أو ميزة نادرة بين نساء القصر . فالخبر بوصم العباسة يكون أضمن انتشارا بين العامة وسواد الناس . وآخر ما نستطيع تقديمه لنقض ذلك الخبر المختلق ما ذكره البستانى فى دائرة المعارف المجلد ١١ صفحة ٤٨٨ حيث قال : (وعاشت العباسة خمسين سنة ، وتوفيت سنة ٢١٠ وقيل ٢٠٩ هجرية ، وصلى عليها المأمون ابن أخيها ، وقيل كان سبب وفاتها ، أن المأمون ضمها إليه وجعل يقبل رأسها وكان وجهها مغطى ، فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم حمت أياما يسيرة وماتت .) إن صحة هذا الخبر هدم تلك الرواية التراجيدية — الخيالية — التى ابتدعها الأقدمون — لغرض خاص — وتفنن فيها كتاب العصر الحاضر فنظموا فصولا رائعة لقلبين عاشقين وحب وارف جميل، واستخرجوا هذا الخيال الجذاب بالسياسة والتناحر للسيادة



الصخرة

للآنسة فدوى طوقان

انظر هنا ! الصخرة السوداء شدت فوق صدري
بسلاسل القدر العتي
بسلاسل الدنيا البغي
أنظر إليها كيف تطحن تحتها ثمري وزهري
سحقت مع الأيام ذاتي
سحقت مع الدنيا حياتي
دعني فلن تقوى عليها . لن تفك قيود أسري
سأظل وحدي في انطواء
ما دام سجاني القضاء
دعني سأبقى هكذا ، لا نور ، لا غد ، لا رجاء
الصخرة السوداء ، ما من مهرب ، ما من مفر

* * *

مهما أزحزح ثقلها عني بنسياني لنفسي
كم خضت في قلب الحياه
وضربت في كل اتجاه
اللهو ، أغرق ، في ينابيع الشباب أغط كأسي
وأعب في نهم شديد
حتى أغيب عن الوجود
دنيا المباهج كم خدعت ببعضها ألمي وبؤسي
فهربت من دنيا شعوري
ورقصت في نزق الطيور
وأنا أقهقه في جنون ، ثم من أعماق يأسي
يرتج في روحي نداء
ويظل يرعد في الخفاء :
لن تهربي . إني هنا . لن تهربي . ما من مفر
ويهب طيف الصخرة السوداء ممسوخ الصور
مهما أزحزحها ، سدى أنَّى الهروب فلا مفر
كم جست في أرض الشقاء
أشتف إكسير العزاء
من شقوة التعساء أمثالي ومن أسرى القدر
فولجت ما بين الجموع
حيث المآسي والدموع
حيث السياط تئز ، تهوي فوق قطعان البشر
فوق الظهور العاريه
فوق الرقاب العانيه
حيث العبيد مسخرون تداعوا زمرا زمر
من كل منسحق فرق
بالدمع ، بالدم ، بالعرق
وبغيت ألتمس العزاء من الشقاء .. ولا مفر
فالصخرة السوداء لعنه
والتفت معي لتظل محنه
بكماء ، تلحقني ، يتابع ظلها خطوات عمري
أنظر هنا كيف استقرت في عتو فوق صدري
دعني . فلن تقوى عليها . لن تفك قيود أسري
ستظل روحي في انقفال
سأظل وحدي في نضال
وحدي مع الألم الكبير . مع الزمان . مع القدر
وحدي وهذي الصخرة البكماء تطحن .. لا مفر !

فدوى طوقان

والسلطة والنفوذ ، وابتدعوا لها نهاية مروعة من بكاء ودماء ..

وبعد هذا كله لو صحت تلك العلاقة (الآثمة) بين العباسة وجعفر لكان الرشيد قد أوردها حتفها — كما استنتجت كتب التاريخ القديمة — ولما تركها تعيش أمام سمعه وبصره رمزا للعار والفضيحة والنكبة

ولكن العباسة عاشت إلى ما بعد حياته ، لأنها كانت عقيلة نقية طاهرة

البصرة — معقل عبد الواحد باش اعيان العباسي
١٥ • ٣٨

بني مصر

للأستاذ أحمد محمود

بني مصر خلوا القول للسيف والقنا … فليس بغير السيف يكتسب الحق
ولا تخدعنكم في الكفاح وساطة … ظواهرها نصح بواطنها رق
وكونوا تجاه الغرب صفا موحدا … متين الحواشي جلدا ليس ينشق
وثوروا على جونبول ثورة عارف … بما سببت للكون أنيابه الزرق
هم الإنجليز المجرمون نفوسهم … رذائلها لم يحص تعدادها خلق
زنادقة سادوا العباد بظلمهم … قراصنة يأباهم الأصل والعرق
يظنون أن الشرق ما زال غافلا … وما علموا أن سوف يفنيهم الشرق
بنوا اليهود اللؤم في عقر دارنا … كيان ضلال أسه الفحش والفسق
يريدون أن يحموه خزيا أصابهم … بإيران لكن سوف يبقى ولن يبقوا
كما شردونا من فلسطين شردوا … ورغم اتساع الأرض ضاقت بهم طرق
لقد خرقوا الميثاق والعهد وادعوا … بأن بلاد العرب شيمتها الخرق
فلا عجب أن يرفض العرب كلهم … دفاعا ذميا ليس في متنه صدق
خبرناهمو أيام ثارت جحافل … من العرب ضد الترك يدفعها عتق
فما نالنا منهم سوى الغدر سافرا … فكيف نجاريهم وليس بنا حمق
بني مصر هذا اليوم يوم تحرر … فلا يأخذنكم في عدو الملا رفق
قفوا وقفة شعب اليوم سما بها … وقد منعت عنه الموارد والرزق
ولا تيأسوا فالله جل جلاله … سينصركم والليل يعقبه فرق
كتائب تحرير البلاد تقدموا … فمن خلفكم شعب تحفزه صعق
فدى مصر والسودان كل حشاشة … لها بهما من بعد رب السما عشق
فيارب أهلك كل مستعمر بغى … فينتصر الإخلاص والأمن والخلق

أحمد محمود

وداع الريف

للأستاذ أحمد أحمد العجمي

يا ظلال النخيل يا نفحات الز … هر يا شاطئ الغدير وداعا!
يا خدود الورود تحت شفاه الط … ل ما للندى يذوب التياعا؟!
يا عشاش الطيور في كل روض … يا نسيم الأصيل هب وضاعا
لم أكن أحسب الفراق جحيما … والنوى حرقة وحظا مضاعا
أين مني ظلال صفو رطيب … يغمر القلب بهجة ومتاعا؟
وحياة تمتد في كنف الري … ف امتدادا ترى به العمر ساعا
كحياة الخلود في جنة الفر … دوس تمضي بها الليالي سراعا
في سبيل الغد الجميل المرجى … شاب رأسي وضاع أمسي ضياعا
أملي النازحين للمجد والعل … ياء أن يقطعوا الحياة صراعا؟!
وعلى الخانعين في قبضة الرا … حة أن ينعموا بها استمتاعا؟
فكأن العزيز يحيا ذليـــلا … وكأن الجبان يحيا شجاعا!
وبرغمي فارقت أهلي وأحبا … بي وأرسلت زورقي والشراعا
يا قلوبا تحنو على وترعا … ني وتهوى قيثاري واليراعا
لك في القلب ذكريات وضاء … سطعت كالسنا وأصفى شعاعا
لم أزل بالخمائل الخضر مغرى … مولعا بالظلال أطوي البقاعا
إن نسيت الصفصاف ذكرى الزي … تون صفو الحياة ظلا مشاعا!
وإذا عقني الصديق فما زا … ت وفيا وسره لن يذاعا
حينما تمزج الضغينة بالحقـ … ـد يطول اللسان بالعيب باعا!
والذي يحسب الصديق عدوا … كالذي يحسب النقاء خداعا
أيها المفترى بشر حنانيـ … ـك ترى الشر حولك الآن شاعا
لن تجوع الأشبال في كنف الليـ … ـث وتحيا الكلاب ظمأى جياعا
وأنا النازح المقيم على العهـ … ـد ولن تصبح الطيور سباعا
النمس بهجة الحياة من الدهـ … ـر فإن ضن فانتزعها انتزاعا

أحمد أحمد العجمي

الكتب

محمد رسول الله

تأليف مولاي محمد علي

تعريب مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار

للأستاذ محمد محمود زيتون

الكاتبون في السيرة النبوية في العصر الحديث على ثلاث فرق: فريق خصوم الإسلام من الغربيين، وفريقان من المسلمين أحدهما مقلد والآخر مجدد

أما الخصوم فقد أخذتهم روعة السيرة فعكفوا على دراستها يبتغون إحصاء المآخذ على الإسلام وترويجها في أوساطهم، وقلما يعترف أحدهم بمواطن العزة والفخار في تراثنا، لأنهم يخشون انهيار ما يستمسكون به من مبادئ واهية، إذا هي قيست بالصروح العالية التي أقامها الإسلام

وهؤلاء – على خصومتهم الظاهرة – لم يكن بمكنة بعضهم أن يغمط الحق – لأنهم وهم المبشرون بحرية البحث، والمنهج الموضوعي، يخشون أن يتناقضوا مع أنفسهم حين تزل أقلامهم إلى مزالق التعصب الوخيم، ومع ذلك فهم طالما يلبسون الحق بالباطل ابتغاء الفتنة

وهذا الفريق كان – ولا يزال – خطراً على الدعوة للاسلام في الغرب. حتى لقد وقع فلاسفة القانون ومنهم منتسكيو في أخطاء جسيمة، نتيجة للاستقراء العاجز، الذي قدمه لهم شركاؤهم في الإفك والتضليل

والفريق الثاني من كتاب السيرة هم أصحاب المدرسة التقليدية أو بتعبير آخر هم الذين يؤمنون إيمان العجائز يصدقون كل ما ورد في السير، فلا يفرقون بين الغث والسمين، أو بين الأصيل والدخيل، فجاءوا بمعجزات لا يكلفون أنفسهم فيها عناء التمييز، ولا يعمدون إلى البحث وفق منهج خاص، وهؤلاء لا قيامة لهم في موازين النقد، ولا سيما في انحدارهم وراء المتواتر من الأنباء غير ملتفتين إلى الإسرائيليات المدسوسة في السير، والإسلام منها برئ

والفريق الأخير هو المدرسة التجديدية التي أصحابها من المسلمين المثقفين الآخذين من الطريف والتليد على السواء، وهؤلاء هم طلائع الأخيار على تراثنا المجيد الذين سارعوا إلى رد الضالين إلى جادة الصواب في رفق المؤمن وتؤدة العالم. وهذا الفريق هو الذي يعوز كتيبة الثقافة الإسلامية التي جندت رجالا يحجزون الفتنة في أقماع السمسم كلما أطلت بقرنيها

وهم – لاختلاف مشاربهم الثقافية – يختلفون منهاجا وأسلوبا، ومن هنا تكون الطاقة الثقافية مميزة للواحد منهم عن الآخر، ومن وراء ذلك كله تتوفر لدى القارئ ذخيرة قيمة من المعلومات فضلا عن الأثر الموصول بين المؤلف والمطلع

وفي الرعيل الأول من هذا الفريق مولاي محمد علي رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور مؤلف كتاب «محمد رسول الله» الذي اضطلع بنقله عن الإنجليزية الأستاذان مصطفى فهمي وعبد الحميد السحار

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب القيم إلى القراء على صفحات الرسالة الغراء يلزمنا التنويه بفضل المؤلف والمترجمين جميعا

وليس من شك في أن علماء الباكستان يعلون علوا كبيرا في مباحثهم الإسلامية التي يطلعون بها على العالم بين الفينة والفينة، وهذا مولاي محمد علي يسير في كتابه هذا في فلك فريد سواء في طاقته العلمية أو المنهجية، فهو – على خلاف المؤلفين في السيرة – يصدر عن ذخيرة وفيرة من الاطلاعات والبراهين، فجاء كتابه هذا ثمرة طيبة لجهود عميق دقيق على سعة في الأفق، وتسلسل في الاستدلال، واعتزاز في الرأي في غير اغترار، وبشخصية عاملة ناقدة

ويبلغ به الحرص أحيانا على دفع فرية إلى حد الاستباق إلى تكذيب واقعة تاريخية أجمع عليها المؤلفون الأولون في السيرة، فيتهجم على الواقعة، ويمضي في الإلحاح على زحزحتها بكافة البراهين المنطقية والأسانيد الصحيحة حتى يخرج من المعركة ظافرا، فيشعر القارئ البرئ بأنه قد نجا من فتنة ووهم وضلال،

ما كان لينجو منها لولا هذا الصراع الفكرى العنيف الذى قام به المؤلف البطل

تابعت المؤلف فى جميع فصول الكتاب ، فوجدته قد نأى بقلمه عن الاستدراكات والاستطرادات التى تسوق من الهدف ، وتشتت الذهن ، وبذلك لم يكن من طائفة المقلدين الذين يقعون فى أخطاء المؤلفين القدامى

ومما حرص عليه مولاى محمد على تجنب كثرة الردود على الخصوم فى ثنايا الفصول ، ولكنه اضطر فى أكثر من مناسبة إلى إزهاق باطل شائع فى أذهان الأوروبيين وهو أن الإسلام لم ينتصر إلا بالسيف ، فكان لا بد من تحين كل فرصة لدحض هذه الدعوى وإبطالها بالحكمة والموعظة الحسنة . ويمتاز أيضا بسعة اطلاع جملته يعقد مقارنات بين ما ورد فى التوراة والإنجيل وبين ما تحقق منهما من نبوءات بمحمد الرسول الغازى ، ولذا فهو يعمل على تجميع الخطوط الرئيسية حول حادث ما

ولقد تجلت مزاياه الثقافية ، وحججه البارعة فى (غزوات النبى) و (دعوى الثلة الكاذبة) و (وميزات النبى الصالح) . ففى هذه الفصول بنوع خاص ، ارتفع مولاى محمد على من المستوى العادى فى تحليل الجهاد فى الإسلام ، ونفى نفيا حاسما حوادث اغتيال قيل إن النبى هو الآمر بها ، وأجمعت عليها روايات الثقات ، كما استبعد فكرة (العزل) من نساء السبى ، وفى هذا كله يصدر من « ذوق إسلامى » مرهف مؤيد بالمنطق الثابت والسند الصحيح؛ تبرئة للنبى مما قد يعلق بالوهم من شبهة ، لو تركت قد تنقلب مع التبرير إلى شريعة

وفى الحق أن الأستاذ السحار وزميله قد خدما الثقافة الإسلامية أجل خدمة بترجمتها هذا الكتاب القيم الذى سد نقصا كبيرا فى المكتبة العربية المعاصرة ، وذلك لاختيارهما فى هذه الترجمة أسلوبا سهلا يتمشى مع سهولة الأداء التى حالفت المؤلف فى هذا الكتاب

ومن دواعى التوفيق إلى هذه الترجمة الدقيقة الرشيقة أن الأستاذ السحار أديب إسلامى مطبوع ؛ فهو مؤلف ومترجم ومؤرخ وناقد وقاص . وله فى كل مجال من ذلك مكان مرموق وهو — بالاشتراك مع محمد فرج — مترجم كتاب « الرسول » لمؤلفه بودلى الذى يعد من الفريق الأول ، ثم إن الأستاذ السحار هو مؤلف هذا الكتاب القيم (المسيح عيسى ابن مريم) الذى نأمل أن نقدمه للقراء قريبا

لقد أفاد السحار حقا من اطلاعه على أمهات كتب السيرة فكان تعاونه مع زميله صادقا ودقيقا فى ترجمتهما كتاب (محمد رسول الله) ومما يجدر بنا التنويه عنه قول النبى يعاتب الأنصار بعد غزوة حنين « أوجدتم يامعشر الأنصار فى العلاة من الدنيا ... ص ١٦٦ وصحتها لماعة (بفتح اللام والميمين) وذلك كما ورد فى سيرة ابن هشام وسيرة السهيلى ، وهو يفسرها بأنها بقلة خضراء ناعمة . وقد شبه بها زهرة الدنيا وزينتها

على كل حال فإن الاطلاع على الأصول العربية قد مكن من تفادى مواطن الإعراب والتورط فجاءت الترجمة سهلة مستساغة تستحق التهنئة الصادقة، أما لجنة النشر للجامعيين فقد استقبلت بهذا الكتاب عهدا جديدا من دارها الجديدة (دار مصر للطباعة) فجاء الكتاب فى حجم مقبول اجتمعت فيه عوامل الذوق من طبع وبساطة وإتقان مع هنات مطبعية لا تذكر

محمد محمود زيتون

القطر الجزائرى

للاستاذ كمال دسوقى

لا أعرف كتابا مصورا ظهر فى العصر الحديث للدعاية لقضية وطنية أجمل ولا أبلغ فى الدلالة على هذه الدعاية الطيبة من كتاب « القطر الجزائرى Algérie » الذى أصدره مكتب الاستعلامات والوثائق بديوان الحاكم العام الجزائرى ؛ والذى أطرف ما فيه صدوره من دار بابا على الجزائرية وطبعه بالمطابع البا كونية الجزائرية أيضا

فهذا الكتاب صور حية ناطقة بل هاتفة وصارخة بجمال هذه البلاد وروعة معالمها وآثارها الطبيعية والفنية بما لا يحتاج معه القارىء فى غمرة إعجابه ودهشته إلى بيان من البيانات

المكتوبة معها باللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية والإسبانية ؛ لجودة الصور ودقة اختيارها وعرضها تغني عن بيانها وتسترعي النظر والانتباه قبل أن تثير الفئات المكتوبة فضول القراءة

أقول ذلك وقد سبق لي أن زرت أقطارا أوربية كثيرة فطوفت بأشهر مدنها والممت بصور دعاياتها التي توزعها متفرقة أو في كتالوجات ونشرات ؛ مجانا وبالثمن ... ففي فرنسا ذاتها — التي هي أكثر الدول الأوربية اهتماما باستخراج صور جذابة لمعالم القرى والربوع المختلفة فيها لا أستطيع أن أقول إنى عثرت فيها على مجلد كهذا .. على أنه لا غرو أن تبز الجزائر هذه الدولة في إتقان الدعاية لنفسها ! فإنها تحتاج من هذه الناحية لما قد لا تحتاجه تلك الدول التي لا تدعو لقضية استقلال بل تدعو للسياحة ! وإليك البيان :

الكتاب مقسم إلى فصول تتصدرها عنواناتها بالفرنسية ، وتعلو هذه العنوانات رسوم تخطيطية بارعة ترمز لمداول محتوياتها ، وهذه الفصول مرتبة ترتيبا منطقيا بحيث تتناول أولا : البلاد بمعالمها الجغرافية : شواطئها وصخورها ، وسهولها ووديانها ، جبالها ووهادها وكثبانها ، وجناتها الزراعية وحيوانها ...

ثم يأتي القسم الثاني في أهل البلاد وسكانها ؛ وهنا تدرس بالصور كثرة سكان مدينة الجزائر البالغين ٤٥٠ ألف نسمة كما تدرس أزياءهم شيوخا وشبانا — أطفالا ونساء ؛ وموظفين وأجانب ، أعرابا ورعاة وغير ذلك من جنود ورافصين وموسيقيين وحراس ورجال دين ... لوحات رائعة معظمها من المتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر .

أما حياة السكان فلها قسم خاص بعد ذلك . وهنا مقارنة طريفة بين الجزائر القديمة والجزائر الحديثة بعمارها الشاهقة وشوارعها الكبيرة وأحيائها الجديدة وفيلاتها الحديثة والعربية الطرز والميناء والمحطة التجارية ... ومدن قسطنطينة وسكيكدة وغرداية ... فأهم منشآت المدينة الجزائرية من مساكن العمال إلى مستشفيات ودور إسعاف ومراكز نقل الدم — إلى مدارس ومراكز للحياة الإدارية (دار الحكومة) والنيابة (المجلس الجزائري) فمساجد وكنائس وأضرحة ومقاهي ...

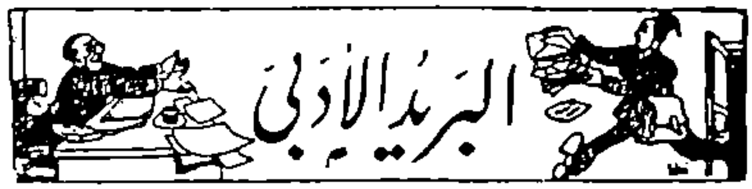
مقاهي تدعو للإعجاب بحضارة هذه البلاد المادية ورقيها وتقدمها .

وتقوم اقتصاديات هذه البلاد وأعمال أهلها في المقام الأول على الزراعة ؛ زراعة الحبوب فالكروم والموالح والتمر (النخيل) والتين (الذي هو ثالث صادرات البلاد في الأهمية) والزيتون ... التي يتقدم إنتاجها بفضل الآلات الحديثة وتقوم عليها صناعات العصير والتجفيف لما يتبقى من الاستهلاك والتصدير .

وفي البلاد جهود لتحسين القروى والتدريب الزراعي واختزان الحبوب للاحتياط بواسطة هيئات وجمعيات ومصالح تعمل على مثالية الطبيعة والانتفاع بمواردها من تربة وخزانات ومساقط (متحدرات) ومصبات وآبار لري النخيل حيث لا يوجد الماء . كما تقوم بها مشروعات للطاقة الكهربائية وتوليدها والطاقة الذرية مما يضاعف في تقدم البلاد الصناعي — إذ توجد فعلا مصانع هائلة للخزف والسيلولوز والزجاج ومصانع النسيج اليدوية والميكانيكية وعصير البرتقال والفواكه المجففة ... كما أن من الثروات الاقتصادية الهامة عدا صيد الأسماك الحديد والفحم والفوسفات التي يتقدم استخراجها تقدما كبيراً ... عدا صناعات محلية ويدوية مختلفة يحترفها الأهلون

وميناء الجزائر أهم مراقي التبادل التجاري الجزائري . وإلى جانبه يوجد موانئ وهران وعنابة (بوك) وسكيكدة (فيليبفل) وأرزيو بأرصفتها ومراسيها واستعدادات التفريغ والشحن والتصدير والاستيراد الهائلة . أما في الداخل فتوجد شبكة من الطرق الزراعية والصحراوية المعبدة التي تجتازها السيارات العامة الحديثة وسيارات النقل و (التاكسيات) ، وشبكة من السكك الحديدية للقطارات السريعة ذات القاطرات الكهربائية التي تشق البلاد بين المدن والقرى وعبر الجسور الحديثة الفولاذية فوق الوديان ؛ كما توجد مطارات أهمها الميزون بلانش والمطار الصحراوي بورقلة Ouargla

والبلاد غنية بآثارها الرومانية والفينيقية والإسلامية في مختلف القرى القائمة أو المهجورة ، ولذا نجد متحف الإثنوجرافيا وما قبل التاريخ يعرض في روعته ومحتوياته نماذج كثيرة من هذه الفنون إلى جانب ما يعرضه المتحف الوطني للفنون الجميلة من



تحية للرسالة من العراق

إلى صاحب الرسالة

وا كبتك منـــذ خمسة عشر عاماً أو تزيد . وأنا فى ركب رســـالتك ، أرشف معين أدبك ، وفيض خواطرك ، وبى ظمأ أدبى . لا يبله غير رشيح قلمك . وروح رسـالتك . لذا جئت منتهزاً فرصة التسعة عشر عاماً التى اجتازتها الرسالة ، لأرفع بين الإعجاب والا كبار تحية أدبية هى منك وإليك . فتقبل شـيخ أدباء الجيل تحيتى ، أ كن ممتنا وشا كراً هذا القبول :

حديث الرسـالة :

لاشك أن الحديث عن الرسـالة متعب ، ومتعب جدا . ولا شك وأن التحدث عن صاحب الرسـالة متعب مكدود . قد يجهد هذا التحدث فـكره ، ويكد ذهنه ، بقضاء سـاعات طوال . بين صفحات الرسـالة ، متصفحا ما تركته من أدب حى خالد . خلال رواسب هذه الـسنين الواضى . يخرج وقد عقد الاعجاب لسانه . لا يدرى ما يقول ، فيضطره هذا الاعجاب ، إلى التقهقر والتراجع ، أمام هذا الصرح الأدبى الجبار . الذى سيطاول الزمن ولا شك ، ويقارع الجهل أنى كان ، وحيثما وجد ، بأقلام عرفت بطيب الغرس والنبت . تستق الوحى من أفـكار خصبة وقادة ، وقرائح لا تعرف الجدب والمحول ؛ فهى دائما وأبداً ، تطالعنا بكل طريف جديد ، ولاذ ظريف . وفى الطليعة صاحبهـــا . يقودها قيادة مدبر حكيم ، بسهر متواصل . وحراسة حدب عليها ، رفيق بها . بعزيمة أشد صلابة من الصلابة نفسها ، وهمة لاتعرف الخور والتراجع فيما هى سائرة نحوه وإليه له قلم طيع يسيره أنى أراد وحيث شاء . هو قاس شديد حين يريد منه القسوة والشـدة . واين مرن حين يريد منه المرونة واللين ، وسـاخر هازل إن أراد منه السخرية والهزل . وجاد

اللوحات الحديثة لرسامين عالميين وفرنسيين ورد كثير منها فى الـكتاب بلونه شاهداً على عظمة الفن الجزائرى لدى الواطنين والأجانب الذين يفدون إليها مصورين ورســـامين ونحاتين وسينمائيين فى ضيافة آل عبداللطيف مثلا أو لتصوير أفلامهم فى هذه الطبيعة الجميلة .

والنهضة التعليمية ســائرة فى طريق التقدم . فثمة مدارس قروية وبدوية بسيطة إلى جانب مدارس الأطفال والابتدائى والزراعى والصناعى والليسيه الثانوية داخلية وخارجية للبنين والبنات — كما توجـد جامعة الجزائر التى تستقبل خمسة آلاف طالب موزعين على مختلف الـكليات بين صـــالات ومعامل وحدائق ومكتبات . .

وبعد هذا لا يلزمك أن أحدثك عن الفصل الأخير من هذا المجلد القيم من (السياحة) فإن بعض ما ذكرت كفيل بتشويق وتشويقك لزيارة هذه البلاد

وعليك بعد هـذا الإعجاب أن تقف وتفـكر غير طويل لتدرك أن الفرنسيين حكام هذه البـلاد قد تفننوا فى إخراج هذا المجلد ليثبتوا به أمام الأمم المتحدة وقبل أن تتقدم الجزائر بدورها بطلب الاستقلال والتحرر — يثبتون به نهضتهم بهذه البلاد — التى قد تكون نهضة حقيقية ولكنها لا تعفيهم من أنهم محتلون غاصبون ... فهى تقدم هذا الدليل المادى لعصابة الأمم المتحدة حتى لا يؤخذ عليها ما أخذ على غيرها فى استعمارها لدول أخرى من أنها لا تعمل على النهوض بها ورفاهية شعبها

هذه هى الفـكرة التى يجب ألا تغيب عن ذهن أى معجب بهذا الـكتاب

كمال دسوقى

حين يريد منه الجد :

هو قاس عنيف . حين يصخب من الحياة ومآسيها . ومن الوضع وشذوذه . فإذا رعف بمأساة من مآسي الحياة تجده جذوة ملتهبة وبركاناً يقذف حمماً وشواظاً من نار . وإذا هدأت نفسه واستقرت يعطيك صوراً من الحيـــاة باسمة ينتزعهـــا قطعاً من قلبه ، فينفثها قلمه سحراً حلالا . وفاكهة طيبة ناضجة

وإذا سخر من الحياة وهزئ بالوضع فتجدك أمام المرى . في سخريته اللاذعة وتهكمه المرير . وإن جد فقي جـده العبر والعظات . والحكم والأمثال . هو ذو قلم سحرى عجيب ، يعطيك ألوانا من الحياة . وصورا من الواقع . لمختلف الأوضاع والصور فمرة تراه ساخرا هازلا . ومرة جادا ، ومرة قاسياً يعتصى العنف والقسوة . ومرة طيعا لينا بأجمل ما تكون فيه الرقة واللين . وهذه هبة قلما أوتيها أديب

فإلى ركب الحضارة وموكب المدنية وقافلة الأدب ومنهل الثقافة أزف تحية أديب متواضع طالما ارتشف معين الرسالة ، رسالة الجيل الجديد . ومنبر الفكر الحر ، ومشعل الثقافة ، ومنار الأدب ، ومثال الاستقامة والخلق العربي الكريم

إليك صاحب الرسالة ، وإلى محبيك الكرام ، أزف هذه التحية المتواضعة ، وقديما قيل : الهدية على قدر مهديها

البصرة — العراق خليل رشيد

ومهد الحجاز

تحية ولا كتحية ، ولكنها الحب الخالص يتغلغل في النفس والود الصادق الذي لم تستطع الأيام أن تحد من ســورته أو أن يهد البعد من أركانه . حب لم يزل ولن يزال ناميا مع الأيام

أستاذى ! يكتب إليك ابن ترى في أحضان البلاد المقدسة، البـلاد التي شعت في آفاقها أنوار الرسالة الاسلامية ، ورددت جبالها أصداء القرآن الكريم ، وشهدت رمالها الصامتة مذابح الوثنية وتحطيم الرجعية البالية ومحق الأنانية الصارخة

يكتب إلى أستاذه ابن الكنانة وربيب قاهرة المعصور وآية الزمن مصر المحبوبة

يكتب إلى أستاذه وهو يصغى إلى قول الحق وجمجمة الباطل ، يعلو في الفضاء لينتهى

يكتب إلى أستاذه : ونداء الحق يسرى في نبضات القلوب بعد أن طوى الأعصار واخترق حواجز السنين : صوت مصر وهي تحطم القيـود الفولاذية بأيد فولاذية أقوى ، وتصوب إلى الأحق الغاصب نظرات المؤمن بحقه الصادق في جهاده المستميت في سبيل حريته واستقلاله

نظرات فيها القوة المتناهية والشعور بالعظمة الحقيقية قوة الحرية والشعور بالحرية

يكتب إلى أستاذه : معترفا بحقوق الأبوة الروحية مترجما في هذه الأسطر كلمات مقتضبة — من خلجات النفس الإنســانية عندما يزاح عنها كابوس الظلام وتغيب في قراراتها أشعة الرحمة ، ويسطع في أفقها شفق الهداية . فترى الطريق القويم والصراط المستقيم عندما تستجيب لنداء الحق . يوم يقف الحق وحده في صحراء الحياة

وعندما يرتفع صوت الباطل محاولا عكس الأوضاع وإضاعة القواعد . تلك ياوالدى — قصة مشعل النور : وأعنى به الرســالة الغراء التي فتحت صدرها للحق وأنصاره فكانت منبراً رفيعا يعلوه قواد مشعل الثقافة الإسلامية مرددين هتافات الحق بين غابات الباطل وتحت سراديب الغطرسة الاستعمارية

لقد كانت الرسالة حقلا طيب البذرة طيب الرعاية فأثمر

ولقد كنت تترك لقلمك « المعجز » وبيانك « الساحر » حق الدفاع عن الحق والحقيقة عن الحر والحرية

لقد وقفت منذ عشرين عاما على مفترق الطرق تشير بيد الإيمان الصادقة إلى تلك الأمم الحائرة ، والشعوب المتشدة على ضفاف الحياة لترشدها إلى طريق السعادة والسيادة .. إلى طريق الحرية . وإن أريق في سبيل اقتحامه أطهر الدماء وأزهقت أنفس الأرواح

ولأن من عهدك ومبدأ رسالتك أن لا ترى الحيــاة جديرة



ماريوتـــو

للأديب الإيطالي ماسوتشيو سالرنيتانو

أحبها ماريوتو ماجنانللي من أعماق قلبه ، وجعلها أغنية روحه ، ومزج غرامها بدمه ، وجعل اسمها الحبيب إنجيله المقدس الذي يردده ويهتف به في يقظته وفي منامه - ثم راح ينشدها في أنفاس الصباح ونسمات الأصيل ، ويتخيلها في لألاء النجوم وصفحة البدر .. وكلما لقيها فوق سيف البحر أرسل عليها حبه وآلامه تتوسل له تحت قدميها الجميلتين وتطلب له الشفاعة حتى عرفت أنه يحبها

وآنست فيه الفتاة طهارة ونقاء وصدقا فرقت له ومالت إليه وجزته على دموعه وحرقه بابتسامة بريئة ماد لها قلبه ، وازلزل من هدتها أسرها كيانه ، وفتحت له أبواب السماء يطلع منها على عالم من الحب سرمدي ، لأنه من صنع اللطيف الباري .. سبحانه وبارك قلبيهما بدالله ، وأخذا يلتقيان خفية ليتعاهدا على الحب وليروياه بدموعهما ، وليقطفا من ثمره إذا أينع .. قبلة أو قبلتين .. ثم ليأخذا في حديث ألذ من قطع الروض ، وأبهى من وشيه يرف على شفاههما رفيف النسيم ، ويتدهدى من أعينهما الظامئة كأنه رقى السحر

وكان ماريوتو من أسرة متوسطة من أهل سينا وكانت الفتاة من أسرة ساراسيني التي هي في الذؤابة من أهل المدينة فكان هذا التفاوت بين الأسرتين سبب عذابهما ونبع مأساتهما والهوة السحيقة التي تحول بين أحلامهما في الصلة المقدسة التي تقرب ما بين الجسمين كما قرب الحب بين الروحين

ولا ريب أن القبلة هي أشهى ثمار الحب وأطيب جناه ، لكنها كما يقول الشعراء تلهبه ولا تطفئه .. ومن الشعراء من يدعوها رسول الأبالسة ، لأنها أول الغيث ..

من أجل ذلك لم يستطع الحبيبان على هذا الهوى العذري اصطبارا ، ومن أجل ذلك صمما أن يكونا زوجين برغم ما بين

بالشراء والبقاء إلا إذا قارنتها الحرية الكاملة .. حرية الرأي والقول والفعل العقلي والمادي

والآن وبعد أن طوى التاريخ تلك الصفحات السود من حياة مصر والمصريين بل ومن حياة الشرق العربي الكريم . وعاد الشرق يبتسم للحياة ابتسامة العز بعد أن قوى فيه الوعي القومي . وثارت فيه روح الدفاع وتربت فيه ملكة الجهر بالحق ولو غضب المستعمرون

يستقبل الشرق والشرقيون والعرب والإسلام لحظات الكفاح مشاركين مصر العربية في شعورها .. مؤمنين على صوتها حين ينبعث من « بوق » العدل والكرامة ، مبتهلين إلى الله بقلوب ملؤها الإيمان أن يشد عضدها وأن يحقق لها آمالها حتى ترى المركة الدامية التي يخوضها أبناء مصر وأحفاد بناة الهرم . وقد تجلت من حرية كاملة واستقلال غير منقوص

المخلص لكم وللرسالة

دار التوحيد – الحجاز – الطائف عبد الله الحصين

وعزل أيضا

كتب الأستاذ محمد عبد المنعم أبو سيف في البريد الأدبي العدد ٩٧٠ يقول : إن أعزل لا يجمع على عزل بتشديد الزاي وإنما يجمع على عزل بتسكينها كما هو القياس في جمع أفعل وفعلاء. ولكن القاموس أورد هذا الجمع فقال : « والأعزل من لا سلاح له كالعزل بضمتين وجمعهما عزل بضم فسكون وأعزال وعزل كركع » وإذن فقد سمع من العرب ذلك الجمع ، ولا تثريب على المثقفين وغيرهم لو استعملوه ما دامت العرب قد نطقت به . وللأستاذ تحية خالصة

أبو عمر حسب الله

الأسرتين

وكان لهما صديق راهب أو قسطى ، ما كادا يشكوان له حالهما حتى انبجست الرحمة فى قلبه والدموع فى عينيه ، وانطلق بهما إلى الكنيسة فعقد لهما واستمان على إنجاز ذلك بالكتمان ، وهكذا ظل ما بينهما سرهما وسر الراهب . وهكذا تم لهما ما أبته التقاليد والطبقات . فقطفا من ثمار الجنة على غفلة من الأفعى حتى استيقظت ، فذهبت تسعى بينهما وبين الناس لتخرجهما من فردوسها الجميل

ذلك أنه كان بين ماريوتو وبين أحد النبلاء من سادة سينا عداوة ، فاستطاع الشيطان للمغيظ أن يؤجج جذوتها بالوقيعة بين الخصمين .. ولم يلبث الجدال أن صار نضالا .. ثم تماسكا .. ثم وكزه ماريوتو فقضى عليه

وكان عليه بعد هذا أن يفر من الدولة أو يدفع رأسه ثمنا لجريمته ، فلبث حيناً مستخفيا عن أعين الناس ، فلما ضاعت جهود رجال الشرطة سدى فى البحث عنه صدر الحكم عليه بالنفى المؤبد

وقد تكلمت الدموع ساعة الوداع ، وضم الحبيب حبيبته يتنفس فى صدره ، ويتزود لفراق طويل لاتنتهى مرارته ، وليس معروفا مداه !

يا لقسوة القادر توقظ المحبين من سبات عميق كله أحلام !

لقد راح كل منهما يرنو فى عينى صاحبه المغرورقتين بالدموع ، وكلاهما بالفراق انجذب بعضهما إلى بعض فى لوعة وفى شجن فترف الشفاة المعذبة على الخدود المحترقة ، هائمة حائرة تلتمس العزاء ولا عزاء ، وتنشد السلوان ولا سلوان

ولقد كان صدر أحدهما يكلم صدر صاحبه بدقات القلب وخطرات النفس ووجيب الروح ، حتى سكتت القبل ، لأنها لا تغنى فى ذلك الحال شيئا ، وصمتت الأعين .. لأن الفراق الذى لم يكن منه بد قد حم

وطمأنها ماريوتو ، فذكر لها أنه نازح إلى الاسكندرية ليقيم عند عمه الثرى النبى ، وأنه سيكتب إليها من هناك ليتصل القلبان على ذلك البعد ، ثم أكد لها أنه لابد عائد إلى إيطاليا الجميلة تواصل وإياها حبه ، ولو كلفه ذلك حياته

وفى غمرة من الحزن ، وثورة من الأسى والفجيعة ، افترق الحبيبان ، وفى نفسيهما مرارة ، وفى حشاهما هم ووجد وألم

وانطلق ماريوتو إلى شقيق له فكشف له عن سره ، وبثه شكواه ، وتوسل إليه أن ينشر ظل حمايته على زوجته ، وأن يكتب له عن أحوالها ، وأن يكون حارسها بالنيابة عنه ... حتى يعود

وركب البحر إلى الاسكندرية، فتلقاه عمه بالبشر والبشاشة ووجد فيه مؤنسا له فى دار الغربة .. ولما باح له ماريوتو بسره ، لم يشأ الرجل النبيل أن يثرب عليه أو أن يعزله ، بل أذهب عنه الحزن بكلمات طيبات ، وملأ فناه بصلاح الحال وتلافى ما وقع بينه وبين أسرة القتيل من خصومة وعداء .. ولم يكن ذلك من الجد فى شئ ، لكنه كان مبالغة فى إكرام مثوى الفتى ، الذى استطاع أن يخلب لب عمه بأسلوبه الغرامى الحزين الحنون

وعهد إليه عمه ببعض مهامه التجارية لتشغله قليلا عن أحزانه، ثم أشركه معه فى منزله الجميل على شاطئ البحر الأبيض فكان ماريوتو كلما فرغ من عمل النهار ، خلا إلى نفسه فى الليل ففتح النافذة المطلة على البحر المتهد ، وراح يتنسم أنفاسه ويستروح سيماه ، ويقرأ من حبيبته أو يكتب إليها ، ويغسل ذلك كله بدموعه الحرار الطاهرات ، فكانت هذه اللحظات على ما فيها من ألم وما بطنت به من عذاب وهم ، أسعد لحظات حياته ، لأنها شمر الماضى وأحلامه ، تطفو على سطح الحاضر وتملل بالآمال ظلام المستقبل

وتحالفت الهموم على جيانوزا فزادتها جمالا ، وهام بها شباب المدينة هياماً جعلهم يترامون على قصيها فى كل طريق كما يترامى الفراش فى اللهب . وذهب كثير منهم إلى أبيها يخطبونها على أنفسهم ، ويمهرونها بكل ما يملكون ، وكان الوالد كلما كلمها فى أحدهم تملت وانتحلت المعاذير ، فكان الأب الحائر يترفق بها ويتلطف ، ثم ينزل عند مشيئتها بغير ماحجة ولا برهان مبين ، ثم يصرف شباب المدينة فى حدب وفى استحياء

وهكذا ظل السر الرهيب دفيناً فى صدر الفتاة يعذبها ولكنه مع ذلك كان مصدر سعادتها الباكية ، ولقتها الحزينة ، والنبع ذا الخرير الذى تختلط فيه آلام الماضى وآلام الحاضر لتثمر مخاوف المستقبل

وضاقت بها أفانين المعاذير فلم تعد تدرى ماذا تلفق منهـا وماذا تدع ، فلما أحست أن الشكوك أخذت تساور أباها من جراء هذا التمنع ، وأنه يلح فى معرفة سرها ، قلق قلبهـا الخفاق ، وسدت نفسها السآمة . . ثم ذكرت الراهب العفير الذى فى وسعه أن يصنع كل شئ . . فانسرقت إليه وذكرت له ما كان من فرار ماريوتو إلى الاسكندرية وما كان من إلحاح أبيها عليها بالزواج ، وما حرصت عليه من كتمان زواجها على أبويها ، وكرهها أن تبوح به خشية ما يجر إليه من عواقب .. ثم سكبت عبراتها بين يدى القس ونثرتها على قدميه ، وتوسلت إليه أن يخلصها مما هى فيه بجرعة من السم القدسى تريحها من هموم الحيـاة ، وتحول بين الفضيحة وبين سرها وحبها

وقد تردد الراهب أول الأمر ، لـكنه سرعان أن رق للفتاة ، ولان قلبه للحبيب النازح ، فتناول كأسا روية من الخمر وجرع ما فيها . . وكأنما شرب منها شجاعة ، وعب حماسة وإقداما .. فتهلل وجهه ، وربت على كتف جيانوزا ، ثم وعدها عدة جميلة ، وأمرها أن تنطلق إلى ذويها فتسلس لهم فتلقاها القياد وترضى عن يختاره أبوها بعلاً لها . .

وسجدت الفتاة وشكرت له ، وانطلقت إلى دارها فتلقاها أبوها بمثل ما كان يتلقاها به كل يوم وكل ساعة ، وما كاد يكرر عرضه عليها حتى قبلته ، فطفر قلبه من الفرح ، وطبع على رأسها قبلة العطف والحنان

وذهبت فى الموعد الذى حدده لها القس ، فأعطاها زجاجة صغيرة تحوى الجرعة السحرية الماثلة ، ثم ذكر لها أنه لم يصنع لها السم الذى رغبت فيه ، بل صنع منوماً يدع شاربه فى حالة تشبه الموت لمدة ثلاثة أيام .. «فإذا حسوت هذه الجرعة وتنشاك النعاس ، وظن اهلوك أنك ميتة ، حملوك إلى قبورنا لتدفنى فيه ، وسأزورك فى اليوم الثالث وأتولى إيقاظك بنفسى ، وبهذا يكون ما بينك وبينهم قد انقطع ، فتستطيعين السفر إلى الإسكندرية حيث تلقين زوجك ، وحيث تكلأ كلاءين السعادة . . »

واغرورقت عينا جيانوزا بدموع حلوية ، ثم قبلت يد القس وانطلقت إلى بيتها تحلم أحلاماً رائعة جميلة

وجلست تكتب كل ذلك إلى حبيبها ماريوتو ، فلما فرغت أهوت على الخطاب تلثم اسمه الحبيب فى كل سطر ، وخرجت لتدفع بالخطاب إلى من يوصله إلى السفينة الشرقية ، فلما عادت ، فتحت النافذة ، وصلت صلاة قصيرة ، وتمتمت باسم ماريوتو ، ثم شربت الجرعة الثمينة ، وانطرحت فى سريرها وأغمضت عينيهـا

ودخل الخدم فى الصباح بالورد والبنفسج ، ورياحين الربيع لمولاتهن ، فلشد ماذعرت قلوبهن وجفلت نفوسهن لأن سيدتهن لا تستيقظ

وأهرع أبوها وبعض ضيفه فوقفوا فوقهـا مسبوهين مأخوذين ، ثم استدعوا أطباء سينا فما نفع طبهم ولا أفلحت حيلهم ، بل ذهبت جميعاً أدراج الرياح

وقر رأيهم على أن يتركوها حتى اليوم التالى ، « فقد تكون نائمة بتأثير شلل في المدة لا يزول إلا فى هذا الميعاد ! » لـكن الميعاد فات ولم تستيقظ جيانوزا ، فلم يعد بد من دفنها ، لأنها ميتة ما فى ذلك شك

وخرجت جميع عذارى سينا يتهادين وراء الأران ، ويحملن أفنان الزهر إلى مقابر سانت أوجستين . . ثم عاد الجميع وكل قلوبهم حرق ، وملء نفوسهم أشجان وأحزان

وخشى الراهب أن تستيقظ جيانوزا فى ظلام الليـل البهيم فتذعر ، ولا يكون لموتها من هذا السبب من بد ، فمضى إلى القبو هو ورفيق له ، ونقلا التابوت الحى إلى غرفته الخاصة

وحانت الساعة الموعودة ، واستيقظت جيانوزا من سباتها العميق بين أيدى الراهب المفزوع ، وأخذت فى الاستعداد للرحلة ، الرحلة المنشودة إلى فردوسها المفقود .. إلى ماريوتو .. إلى الزوج العزيز الذى اقتحمت فى سبيله أصرم العقبات

وقد دبر لها القس ثياب راهبة . وبعد أن دعا لهـا بخير ، انطلقت إلى ميناء بيزا ، حيث ركبت فى سفينة متجهة إلى الاسكندرية مع كثير غيرها

وقد لعب البحر بهذه الحفنة من السفن شهورا طويلة ، وكأنما كان ذلك لتمام المأساة . وذلك أنه لما علم جارجانو — شقيق ماريوتو — بما كان من وفاة الفتاة ، فانه أرسل إلى أخيه كتابا طويلا ينعيها إليه ، ويطلب له الصبر والسلوان . وقد وصل الخطاب

قبل أن تصل جيانوزا ، وقبل أن يصل خطابهـا الذى سطرته إليه قبيل تجرعها الجرعة .. فواهاً للمحبين إذا عثر بهم الحظ . . وإذا لج بهم العثار ..

مسكين ماريوتو ! لقد فض خطاب أخيه بيدين مرتجفتين ومتمناه أن يتلو فيه خبراً يسره .. فماذا قرأ ؟

« جيانوزا .. لقد ماتت جيانوزا يا أخى .. فتجلد ، وهذه غاية كل حى

«لقد كنت أوثر ألا أبعث إليك بهذا النبأ، لكنى اضطررت أن أفجأك بالحق ليهدأ قلبك ، وتستريح نفسك»

ولم تنحدر عبرة واحدة من عينى ماريوتو، وأنى له أن يبكى، وليس أعصى من الدمع فى هذه المآسى التى تزلزل النفس ، ولا تنبجس لها العين

وشاع فى نفسه الحزن الصامت الذى ليس أنكى منه مرارة ولا أحر وجداً

وعبثاً حاول عمه أن يواسيه .. وصمم الزوج الحزين أن يبحر من فوره إلى إيطاليا ، ليقف على ثرى حبيبته ، وليسقيه بدموعه ولينشق هذا الهواء المريض الذى نشقته قبيل موتها من أجله ، وفنائها بسببه .. ولأنه لايليق به أن يخشى شيئاً فى سينا بعد أن قضت حبيبته ، وتحملت الأذى والهوان من أجله

وأرست السفينة فى نابلى ، وانطلق ماريوتو فى ثياب حاج إلى سينا ، واشترى آلات رأى أنها لابد منها لينقب بها حائط القبو ، حتى يتيسر له الدخول إلى حيث تقر رفات معبودته ، فيجزيها حزناً بحزن ووفاء بوفاء ، ثم لينام جنبها إلى الأبد، لأنه لا يطيق البقاء بعدها

واختبأ فى الكنيسة إلى أن جنه الليل ، حتى إذا نام الجميع وأمن أن يعثر به أحد ، أخذ فى نقب جدار القبو ، وقبل أن يفرغ من هذا شعر به حارس المقابر ، فنفخ فى صوره ، وظل ينفخ فيه حتى استيقظ الرهبان ، واجتمعوا عليه ، لكنه كان قد فرغ من عمله ، وانفتل داخل القبو ، وفى ظل شمعتين صفراوين شاحبتين ، وقف على رمس ظنه رمس حبيبته

وكانت التقارير السرية قد انتشرت فى أيدى الجواسيس تعلن وصوله ، فلما قبض عليه وسيق إلى قضاته؛ باح لهم باعتراف جامع ناجع وساعدته دموعه التى كان ينضح بها كلماته ، فهاج شجون النظارة وفجر فى قلوبهم شآبيب الحنان ، حتى إن كثيراً من النساء وبعض أصدقائه ، عرضوا على المحكمة أن تسمح لهم بمشاركته فى جريرته ، أو إلقائها كلها على كواهلهم ، إذا كان ذلك شافعاً لإطلاق سراحه ، ولكن هيهات ! لقد زجر كبير القضاة ، وتهدد الحضور إن تدخلوا فى إجراءات العدالة ، أو اعترضوا سبيلها ، فصمتوا . وانتهت المحاكمة ، وصدر حكم الظالمين القساة بالإعدام

ووصلت جيانوزا بعد لأى إلى الإسكندرية ، وانطلقت من فورها إلى بيت العم العزيز الذى تلقاها كابنته، وأمض الناس عليه ولم يشأ أول الأمر أن يفجأها بسفر ماريوتو ، بل تركها تسرد عليه قصة موتها المدعى ، حتى إذا فرغت منها تبسم الرجل الخير ، ثم ذكر لها أن ماريوتو قد تسلم رسالة من شقيقه ينعيها له فيها وأنه منذ ذلك اليوم لم يعد إلى البيت ، وأن أكبر ظنه أنه رحل إلى الوطن

يا آخر الأنباء السود ما أشأمك ! أبعد طول النضال فى البر والبحر ، وبدلا من أن تضم إلى صدرها المعذب حبيبها الشوق تحضر إلى الاسكندرية فيبددها هذا النبأ

وأخذ الشيخ يواسى جيانوزا ، ثم عرض عليها أن يرحل معها إلى نابولى ثم إلى سينا ليلقيا ماريوتو حياً أو ميتاً، فاستخرطت جيانوزا فى البكاء وشكرت للعم ما غمرها به من عطف ولطف

وتنكرت جيانوزا من جديد فى مسوح الرهبان وعمت شطر الشاطئ لتركب البحر فى كنف الرجل الطيب ، وهمت بهما الفلك إلى الشاطئ التوسكانى ، حيث أرست عند بيومبينو ، وحلت الفتاة ضيفة عزيزة على السر نيقولا ، نيقولا الثرى صاحب فيلا نيقولا — عم ماريوتو ، التاجر الاسكندرى ، وهى فيلا جميلة قريبة من سينا

وكانت نهاية الفجيعة أن ماريوتو المسكين قد نفذ فيه حكم الاعدام قبل وصول زوجته وعمه بثلاثة أيام

أوه لقد سكب العم الطيب مواساته فى دموعه بين يدى جيانوزا ، فماذا صنعت هيه

وقبلت أن تقضى البقية الباقية من حياتها فى كسر دير ! ولم تستطع أخواتها الراهبات أن يواسينها فذبلت جيانوزا ولم تزل تذبل وتذوى كل يوم، ولم تفتأ تصهر قلبها ودموعها بالبكاء على ماريوتو حتى لفظت نفسها الأخير !

د . سهم

مطبعة الرسالة